

كتاب الجمهورية

Amly



<http://arabicivilization2.blogspot.com>

ومضة الصيف

أسامة انور عكاشة



كتاب الجمهورية

وهج الصيف

Amby

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

اسامة أنور عكاشة

كتاب الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

سمير رجب

رئيس التحرير التنفيذي

د. فتحي عبدالفتاح

سبتمبر ٢٠٠١

١. خطا النهار في يوم سابق

الإشراف الفني :

مصطفى كامل

المتابعة :

صفوت مكاشة

نهار الصيف أبيض. يتماوج في الخطوط الطولية.
حيث تبدو المسافة من ناصية شارع "داير البحر"
إلى ناصية شارع المتحف في قلب الضفة الأخرى..
سفرة لها غرابة سفرات السندباد..

وحين انحسرت مساحات الظل المعتمة في الشوارع
الغربية اجتاحت وسط المدينة شمس ما قبل الظهيرة
وداخل عربة الترام الزرقاء اكتست الوجوه برقائق الرطوبة
الشمعية جفها نسيم المتوسط يتسلل من الشوارع
القصيرة المتعامدة على الكورنيش وطريق الترام... أما
قسمات وجه الرجل الجالس أمامه فقد بدت له بجسيدا
حيا لمنحوتة "قوتى" أحد آلهة مصر القديمة.. استغرق
في تأملها دون أن يعنيه بل توغل خلفها مع أفكار
رسبت في قاع الليلة الماضية..

لم يبدأ هو الشجار ولم يسع إليه.. فقط وجد نفسه يواجه ثورة حسن الغريب..

- رفنوك من الجورنال بلا سبب؟.. كلام فارغ.. أكيد وراء المسألة «عملة سودة»..

ماذا كان باستطاعته أن يقول لشقيقه الأكبر، وكيف يشرح له ما حدث في قضية «الرمادى»؟ أنى لحسن الغارق في التجارة والسوق أن يفهم فى ألعاب السياسة؟ إن الرمادى بالنسبة له اسم يراه فى الإعلانات ويسمع عنه ولكنه لا يدرك أبعاد تواجده وسيطرته..
- حسن! المسألة أكبر كثيرا مما تذكره..!

لم يقصد مطلقا أن يجرحه أو يهينه ولكن الجملة كانت كالطليقة الطائشة التى تصيب فتقتل.. وتحولت الليلة إلى كابوس شارك فيه الجميع.. سيد المرسى.. والحاجة «جازية».. و«أبله باطة» وباقي رجال وبنات وصبيان ونسوان البيت.. ولم يته إلا بالنسحابة إلى حجرة البرج.. وكان آخر ما سمعه قبل أن يغلق الباب.. صوت صفعة تلتها صرخة كانت فى الأغلب من نصيب البنت راما..

«من ضربك يا راما؟» سألتها فى الصباح وهى تناوله كوب الشاي.. وأجابته بأنها لا تذكر.. «كثيرون!.. لم يعد فى هذا البيت من لم تستغفه راما بسلطة لسانها حتى صفعها.. وكانت الحاجة تؤكد دائما أن البنت تتورد وتحمل وتضمن على الصفعات»..

بعدها بدقائق خاطبه «رفيق الجوينى» على الهاتف..
- كل شيء يمكن إصلاحه يا أبو حجاج.. ولابد أن تعود لعملك..
انتظرك فى البيت ظهرا.. ما صلة رفيق بما حدث؟..

رفيق جاوره فى «تخته» واحدة طوال سنوات الاعدادى والثانوى.. أحبه أكثر من أشقائه ولم يستطع اختلاف المسارات أن يضعف ما بينهما.. ظلا متلاصقين حتى بعد أن دخل رفيق كلية التجارة والتحق هو بالحقوق.. ثم رحل إلى القاهرة وراء حلم الصحافة ونهاويم المجد المأمول والشهرة الآتية لأرب فيها.. وبقي رفيق ليزير أعمال «شركة الجوينى» المزدهرة..

يعرف يوسف الطريق حتى ليمشيه مغمض العينين.. من محطة ترام جليم إلى الشارع الموازى بمجموعة السرايات و«الفيلات» الأنيقة للمجاورة والمواجهة لقصر الأميرة «فاطمة» الذى أصبح متحفا لمجوهرات أسرة محمد على الكبير.. وعند الناحية التالية العمارة الخمسينية ذات الطلاء الأصفر وحديد الشرفات وضلف «الشيش» باللون الأخضر.. وجانبها الغربى تنعكس عليه شمس ما بعد الظهيرة «زمان فى المشوار اليومى خلال الاجازة الصيفية»..

كان قلبه يخفق بشدة.. «معقولة؟» ما الذى أرجع ذكريات السنين الخوالى حتى تحرك ما خمد؟.. لا بد من شيء ما.. آه.. أدرك بعد لحظة أنه عطرها.. يعنى جو المصعد.. لا بد انها سبقت بهدافائق.. ولكن.. كيف؟ إنه العطر القديم.. أتراها..؟.. أو تراها؟

لم تكن هناك فسحة لاستطرادات أخرى.. فتح الباب.. وسمع صوتها..
قال رفيق وهو يسحب من معصمه...
- مفاجأة! ما رأيك أن ترى من لم تره منذ عشر سنوات؟..
المطر فى عز الصيف!

رائحة المطر وبخار الماء فى نوة «الفيضة الكبيرة».. وعطن كامن فى نسج «سويت» من الوتر بروف مفرد على رأسيهما وهما يحاولان أن يحتميا

بمدخل عمارة فى شارع فؤاد.. هل تختلط الدموع بقطرات المطر حقاً؟..
 الدموع ملحية الطعم.. والمطر لا طعم له..
 - رفيق وعدنى بأن هذه الزيجة لن تتم إلا على جسّته..
 - رفيق فى ثانية جامعة مثلك.. ولا يستطيع أن يعارض أباً مثل أبى.. على الأقل لن يستطيع أن يجبد البديل الذى يتقدّ أبى من انهيار أعماله.. وقد جاء «العريس» على فرس النجدة..
 - وهل أقف عاجزاً وأراك تضيعين منى؟..
 خطفت قبلة على خده متسلة بسرعة من تحت «السويتر» المظلة..
 يهتف فى أثرها: انتظري حتى ينقطع المطر..
 تلوح له وهى تعبر إلى الرصيف الآخر حيث توقفت سيارة «التاكسى»..
 ثم تضم كفيها وتهتف: لن أنساك!..
 ويتحول حفيف الأمطار إلى هدير.. وتغيب السيارة خلف ستار البخار والرزاز..
 فى الشرفة كان الصيف حاضراً بقوة.. ولكن يوسف ظل يتنسم رائحة المطر.. وتقلصت أسعاه مع ألم خفيف فى المعدة!.. نفس أعراض اللقاءات القديمة قبل إطلالتها..
 من الظلال داخل حجرة الصالون الباردة.. جاءت.. يتبعها طفل فى السابعة..
 .. له عيناها وشفتاها المكتنزان.. واستدارة الجبين عند مثبت الشعر.. ومابقى قد يكون من ملامح الرجل الآخر.. ذاك الذى كرهته دون أن تراه..! أيكون..
 - أهلاً يوسف!..

يدها المملودة تنقوس مسترخية فى توق تعوده زمناً ليلقنها بأصابعه..
 - الحمد لله على السلامة يا أم..؟ «تسحب يدها وتعلو خديها حمرة خافظة وتشحب أرنية أنفها»..
 - هانى.. سلم على عمك يا هانى!..
 يضافحه الطفل بسرعة ثم يفلت خارجاً قبل أن يميل عليه ويقبل جبينه..
 خلت الشرفة إلا منهما.. ولم تبد منها أى بادرة.. كأنها كانت تعد اللحظة.. وقبل أن يجد طرفاً لخيوط يجذبه داخل رفيق.. وهو يتحدث فى المحمول.. «عادته التى لم يستطع تغييرها.. بصوت جهور يتحدث عن أدق أسرار.. أمامه هو بالذات.. اتهمه مرة بأنه يستعبد أن يستعرض عليه.. ولكنه قال مدافعا بأنه فى حضوره بحس وكأنه وحده.. ولم يفهم بعدها قصصه من العبارة.. يذمه.. أو يطربه.. هكذا كان رفيق دائماً.. يقول فى كثير من الأحيان ما لا يفهمه هو نفسه»..
 .. ابتعد خطوات بمحموله.. أدارت ظهرها نصف دورة وكأنها تطل على حديقة القبلا المجاورة وعبرت خصلة شعرها مرمى النسيم المتلكئ.. على حافة الظهيرة.. نفس المسكر القديم «فيرست من أرابل!..» هى أخيرته وحفظ الاسم.. ولم ينس.. رده الآن كتلميذ يتذكر أبياتاً من قصيدة مقررة..
 - مازلت تضعين الفيرست؟
 يلحظ تسرعت أهدابه كما تشرئب فرس النوى.. «صلى صلى وأنا اسيبك.. تردية الطفولة حين تقع فى أسرهم تلك الجراة الخضراء»..
 رنت.. ثم همست:
 - لم أغيره أبداً..

عانتقه الجملة.. وأراحت رأسها على صدره.. وكأنها دعوة لاستحضار المشوان اقترب لينظر بجوارها الى الحديقة.. ويهمس بدافع قهرى لم يصدق.

- عشر سنوات.. ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟.. انتهت لنداء طفل لم يسمعه.. وانشئت خارجة بسرعة وكأنها لم تسمعه.. «كانت الغصة زمان تدفع بالدموع الى عينيه ويحبسها فيؤلمه حلقة.. أما الآن؟» كان رفيق قد أنهى المكالمة.. وكان يعرف فيم يفكر صاحبه مستترا بالنظرة الغائمة..

- عادت بالأمس من الرياض وبقي هو.. تريد الطلاق ! وقبل ان يعلن أو يعبر عن دهشة الاستنكار المفتعلة.. واصل رفيق.. - المهم الآن!.. غدا أى يوم من أيام ربنا؟.. - أظنه الخميس؟

- سأمر عليك عند الغروب واصحبك معي.. سنحضر حفل عيد ميلاد أحد أولاد «الرمادى» الكبير.. وهناك تنتهى المشكلة من جذورها.. وقبل ان تنتهى الليلة سنعود لصحيفتك ! - أنا لن أركع لكائن من كان..

- كف عن هرائك.. لا أحد يريد منك ان تركع أو تسجد.. كل المطلوب منك أن تصحبنى غدا إلى مارينا.. ودع كل شئ لى ! .. تلك وسيلته الدائمة فى السيطرة على مسارات الأمور حوله.. «هو عمدة أو ابن بلد بالمعنى القولكلورى.. أبو احمدات اسكندراني.. يستمتع بممارسة الأبوة على الجميع.. وله قدرة فائقة على بناء الصداقات

والعلاقات بسرعة البرق.. أما موهبته الكبرى فهى تناقضه مع نفسه بدرجة تثير القلق لدى الجميع.. يبدو أحيانا كريما إلى حد التبذير والسفه ثم ينقلب بخيلا شحيحا فى لحظة.. يقع فى الحب بمعدلات قياسية ويبدو عاشقا رومانسيا يشغه الوجد ساعة فيكى كالأطفال ويصوم عن الأكل ويعتكف كالراهب فى صومعته بكنج مربوط ولا تخشى إيام حتى ينسى القصة برمته، ولا يبدو مهتما بأى امرأة على وجه الأرض.. وحين تزوج لأول مرة وهو فى الكلية انفصل بالطلاق بعد اقل من عام.. ثم كرر التجربة ثلاث مرات وله من كل مرة طفل أو طفلة..»

- طالع خالى طلعت.. والولد خاله.. وخالى قبطان كما تعرف.. له فى كل ميناء امرأة.. وله أبناء وبنات يعدد شعر رأسه.. تعرف أنه قد دون أسماءهم فى كشكول حسب البلد واسم الام.. ولم يستطع حتى اليوم ان يحفظهم!

بغىظ لا يدري يوسف سببه الحقيقى لأن الموضوع رحلة مارينا وحفلة الرمادى كان يمكن ان يسمعه فى التليفون بلا ضرورة للمشوار من غرب البلد لشرقها..

- أردت أن افاجئك يا سيد الحمير.. تحضر فتجدها أمامك.. وأستمع أنا برؤية جنابك شاحبا مرتجفا توشك ان تفعلها فى لباسك ! - لم تغير يا رفيق.. كأن الزمن توقف عندها.. ولم يتحرك لحظة.. - سمعت همستك وأنا اتحدث فى المحمول..

وراح يقلد همسته ساخرا عشر سنوات ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟.. لم يستطع ان يفسر أبدا «حياد» رفيق.. وكان «رحاب» ليست أخته..

قبل أن يغيب التاكسى وتواريه الامطار.. جرى خلفه.. رأى رأسها يستدير
ناظرا من الزجاج الخلفى.. عليه تنداح قطرات تحفر مجرى للدمع فى
عيون يغسلها ماء ملهى.. يذيب الضباب.. ثم اختلط البرتقالى بالأسود
بالمادى.. وعاد إلى حجرة البرج.. يذفن وجهه فى وسادة رطبة.. ويكي
بين يدي فيروز: يا كتب اسمك يا حبيبي عالجور العتيق.. تكتب اسمى يا
حبيبي عارمل الطريق.. بكره بتشتى الدنى عالقصص لمجرحة.. يبقى
اسمك يا حبيبي.. واسمى ينمحي..

.. وليس فى الاسكندرية حور عتيق.. لكن شاطئها لا تنقصه الرمال..
أما الشمس فقد قطعت مسافة أخرى من رحلتها المكرة.. وهى تواجهه
من شباك عربة الترام.. لا بد أن يسوى الأمر مع حسن الغريب..
لم يحب امرأة فى دنياه كما أحب حسن الغريب!.. حسن ليس مجرد
الأخ الأكبر وعائل الأسرة.. حسن أبوه..

يذكر يوسف أباه «طشاشا».. وربما كانت الملامح العالقة بذاكرته منقولة
من الصورة الكبيرة المعلقة فى حجرة «الجلوس» لمعجوز يعتمر عمامة
ويرتدى «بنش» وعلى كتفه «لاسة» وتحت شارب كث تفر الشفاة عن
شبه ابتسامة تتناثر بفجاجة مع التعبير العابس للعينين.. لا شئ فيه.. يشبه
أيا منهم.. ولكن - تقول الحاجة جازية - لو أن الحاج خليل أزال شارب
لصار هو - يوسف - نسخة تطابقه!

وخليل عبد البارى الشفقى تاجر المانيفاتورة فى العطارين كان له مزاج
غريب فى تسمية أبنائه.. حسن الغريب.. وسيد المرسى.. وعلى
الاحسن.. ثم يوسف الاحلى.. كتب الثلاثة الأول بأسمائهم المركبة فى
شهادات ميلادهم.. وحين جاء يوسف كانت التعليمات الرسمية تمنع

الأسماء المزدوجة.. وكان هذا من حسن حظ آخر العقود.. فلقب
«الاحلى» كان كفيلا بأن يسبب له مضايقات لا أول لها ولا آخر.. وكان
إلى عهد قريب يتشاجر مع كل من يناديه به ولو على سبيل المزاح!
- ما الذى رماك على يا أحلى؟..

بلمعها يوسف فالرجل غاضب منذ ليلة الأمس..

- حقت على يا غريب!

.. و«برطم» حسن بما يعنى أنه ليس غاضبا من كلمة قالها يوسف.. ولكنه
حزين لاستهتاره فى عمله للدرجة أن يعرض نفسه للفصل والضياعة..

- شوف يابن أمى وابويا.. المسألة ليست اعالة أو أكل عيش.. فهذه
التجارة مازالت قادرة على أن توصل الانفاق عليك وعلى عشرة غيرك!
لكنها مسألة وضع وحيثية.. كنت أفتخر بك وأتباهى وسط تجار الشارع..
ويوم كتبوا اسمك فى الجورنال لأول مرة اشتريت كل النسخ من المتعهد
ووزعتها ومعها «الشربات» ثم نأتى لى فجأة لتقول.. رفثوني.. لا
ياشاطر.. تبقى ولد خسران ومستهتر.. «.. يحكى الحكاية وامره لله..
وسواء فهم الغريب أو لم يفهم.. سيتهي الأمر..».. وعبدالرحمن
الرمادى اسم «يرج» الدنيا.. لكن الصورة مضية فلاسباب يجهلها كان
الرجل يكره التصوير ولا يحب أن تنشر له أى صورة فى أى صحيفة حتى
وإن كانت صورة جماعية مع آخرين فى أى مناسبة!.. وحين ذهب
يوسف ومعه مصور الصحفية الى تلك الأرض الخضراء الانيقة فى
المتجّع الفاخر حيث يمارس كبار السوق ومليارديراته رياضة الجولف كان
الارتطام..

- موضوعى كان تحقيقا عن الهويات الباهظة لارباب الشريحة الجديدة..

هؤلاء الذين يمثلون تلال الثروات الفادحة ويمكن للواحد منهم أن ينفق
 بئذخ اجرامى على الققط والكلاب.. والسيجار الهافانا.. والمشاء الوافد
 يوميا من «الماكسيم» بطائرة خاصة! لم أكن اسعى خلف الرمادى بصفة
 خاصة ولكنى وجدته هناك! وطلبت من المصور أن يلتقط صورته من بعيد
 وهو يلعب الجولف وأحاول أنا أن اقترب منه وأحصل على أى كلام!
 هاج الرجل وثار وحطم الكاميرا وأوسع حراسه مصورى المسكين ضربا..
 ونالنى بدورى جانباً من الغضب فمزقوا كم السترة وحشوا به فمى
 وسحلونى على الأرض حتى الطريق العام.. وفى المستشفى قالوا للمصور
 ان ثلاثة من ضلوعه قد كسرت بالإضافة الى ثنابا اسنانه!.. ماذا افعل يا
 حسن يا غريب؟.. هل أقبل الإهانة وأحمد الله على النجاة واكفى على
 الخبر ماسجور؟ إذا لاحترقت نفسى الى الابد ومات التسوق الصحفى
 بداخلى.. فهل ترضاهالى؟

عبس حسن وقد هاله ما سمعه.. ثم هرش ذقنه كعادته حين يفكر فى أمر
 يحيره.. وانتظره يوسف حتى يصل الى الغاية التى كان واثقا من وصوله
 اليها..

- لو منك لضربته فى ساعتها..

- لو استطعت.. لقد كان حوله عشرة غيلان يا حسن.. الضحل منهم
 يضرب عشرة من عبتى فى نفس اللحظة!..

.. ولأول مرة لاحت ابتسامة مترددة على وجه الغريب..

- وما عاد يبدك إلا أن تنتقم لزميلك ولك بالسلاح الذى تملكه؟..

- كتبت يا بوعلى.. حنة دين مقال! مزقت فيه عرض أهله.. وقلت كل ما
 أعرفه عن أصله وفصله.. لم أذكر اسمه الحقيقى طبعاً وإلا وقعت فى

المحظور وكان نصيبى حكماً يخرب بيتى ويبت الجريدة.. ولكنى اطلقت
 عليه «النص نص».. نص أبيض ونص اسود.. ووصفته كأنى ارسمه..
 حتى لثغته العجيبة التى ينطق فيها الحروف المتقوطة بلا نقط! باختصار لم
 يبق قارئ واحد من قراء الجريدة لم يتعرف عليه.. وبعد صدورهما
 بساعات قامت القيامة التى ألفتنى فى حضنك لتكمل على بغضبك
 وتهاملك لى بالاستهتار والبطر بلقمة العيش.. كثر خيرك يا بوعلى!..

.. هذا الرجل الضخم.. الحشن.. الثرائى.. حسن الغريب خليل
 الشفقى.. يتحول إلى طفل منكس الرأس خجلاً أمام عتاب شقيقه
 الاصغر.. ويهمس منكساً:

- لم تحك لى الحقيقة من البداية؟.. تعالى لحضنى يا ولد

.. تفرورق عيناه وتتابه حالة الوجد القديمة.. سيترك المحل لصبيانه بعد
 قليل ويهرع إلى أقرب جامع أو زاوية.. يستلم العامود ويبكى..
 تقول الأم جازية..

«حسن ضعيفته طبيته وقلبه الخفيف.. فصار اقرر اشفاقته رغم أن تجارة الأب
 مازالت تحت يده.. الفضل فى بقائها يرجع لسيد المرسى.. هو عقل حسن
 ودليله ومرشد.. ولكن سيد لا يملك «حظ» حسن مع الناس الذين
 يحبونه.. تهتف «راما» يحبونه «ويستكر دونه».. تنهرها ابلة «باطلة» لان
 حسن عمره ما كان «كروديا».. فتشاكسها راما مؤكدة ان ديون حسن
 تفرق «التجارة» ولولا سيد لانهارت.. ويكفى أن على الاحسن قد خرج
 من البيت والمحل وأصر على تقاضى نصيبه «ناشف».. وها هو الآن وقد
 أصبح مليونيراً أو يكاد..»

أربعة أشقاء كفصول السنة.. لا يشبه أحدها الآخر وأن تلاء أو سبقه..

■ الفصل الثانى

٢. خفايا الشفق التالى

.. ترى.. اى فصل فيهم انت يا احدى؟..

لماذا يوسف الاحلى يا عم خليل يا شفقى؟.. يوسف لم يكن اكثرهم وسامة ولا اجملهم طلعة.. «بل كنت حين ولدت يا وله!.. تقول الام وتؤيدها باطة: يخرب بيت جمالك وانت فى اللقة!.. اى عيون.. وأى خدود.. أم ترانا اسميناك يوسف بدون مناسبة؟!

ونهورى راما بلسانها لتهدم المعبد: سببحانه.. مسخك على كبر وسواك أقبح من قبارى الأعور..

«فشرى».. قالتها «باطة» بلا مزاج غاضبة.. «يوسف».. كان ومازال أوسم رجال الحى..

ما الذى تفعله هنا فى دابر البحر يابن الشفقى؟.. لماذا لم تظل فى القاهرة وتقاتل من اجل قضيتك؟..

أى قضية يا وسواسى الابله؟.. ومن أقـاتل فى سبيلها؟.. الرمدادى ام رئيس التحرير؟..

ام رئيس المؤسسة الذى اصدر قرار فصلى؟.. يا عم صلى! ذهبت الى النقيب.. واعضاء المجلس.. قالوا ان هناك بلاغا قدم للشرطة يتهمنى بتخطيط «هواية» باب «الشبح ستمائة السوداء» وسرقة محتويات تخص الباشا!.. ولا بد ان ينتظروا حتى ينتهى التحقيق ويتم التصرف فى البلاغ.. فهمت يا باشا؟.. انا فهمت.. الحل فى يد «الباشا».. ورفيق «لقطها» وهى طابرة ومن اول لحظة.. والغد هو الموعد.. اليس الغد بقريب؟ مساء الخير..

دائرة حول المكان وزمنه:

مساء الخير يا ربيع يا ابن الشتاء وحفيد الخريف وتوأم الصيف الطويل !
حين رأى عبدالسارى الشفيق الملاك المكلف بقصص الارواح . لم يره
معه أحد من المتحلقين حول فراشه .. وحده لمحاه رغم نظره الكلبل .
وابتسم فى حسرة ساحرة .. وهو يومئ برأسه ويهتف به: اجئت يا
ملعون؟ ..

مد يده وقبضت أصابعه على رسفى ..

- أنا ماشى يا خليل ! .. «ويواصل خليل حكايته التى رواها عشرات
المرات» ..

حين حرج السر الالهى وبرد الجسد .. ننت فى المسام المصغرة ازهار
بفسجية على شكل المحار غطت الجسد كله . وعلى حافة النافذة
حط طائر غريب لم يأتى من مكان فالشباك مغلق والباب وانا
وحدى احلس بجوار الجسد المرهر وانا ارتل القرآن من المصحف
مفتوح . وكان يسمعى . ووجهه «الملتهم» يشى برحلة تعمر من
الشرق مع الشمس فى زورق ذهى ! ..
وتحدث الطائر الغريب ..

الرحلة طيبة يا خليل والريح رخاء.. والقوافع تركب الامواج
وتلفظ لؤلؤا منشورا يعلو الزبد الالاماسى.. تزوج يا خليل من جازية
بت عمك وأولدها حسن الغريب. وسيد المرسى.. وعلى
الاحسن.. ويوسف الاحلى وعطيات التى استدعونها «باطة»
ورومانة تدللونها به «راما».

وصية راحل بعد رحيله! حدثت كثيرا من بيوت دابر البحر.. وعد
اصحابها من الاولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!
حسن الغريب الطيب. يقسم غير حاشا انه حين نزل الى «التربة»
مع جثمان ابيه خليل.. رأى جسد الجدد عبدالبارى سليما ترقشه ارمار
البفسج..

«هر سيد المرسى كسفبه حين سألته يوسف. نعم نزلت مع حسن
وعلى. وعن نفسى لم انظر نحو كفن جدك!.. ربما.. سببانه قادر
على كل شئ». اما على الاحسن فقد شخر هازنا وهو يشيح بيده.
دماخنا يا سى يوسف.. دا كلام معرسين..»

. على الاحسن مكبر دماغه ولا يحب مجالس السمر وتبادل
الذكريات.. وتقول «ستى سوريا» عميدة نساء أسرة الشفقى.
خمس سنوات بعد المائة على الاقل وتقفز فى مشيتها كأبى فصادة..
وتكره على كراهة التحريم. ولد منجوس.. اختطفه «المارد» ذات
غروب يوم «نوة» شتوية وخاض به إلى الاعماق ثم استبدله. لم يعد
على الاحسن مطلقا ذهب الى غير رحمة.. وجاء بدله «على»
الانحس كما تسميه.

لا يدور الزمن ولا تتحرك الشمس وذاكرة الـ الشفقى تتحرك فى

دائرة ولا تعرف بداية ولا تصل لنقطة تغلقها.. الكل يحملون اثناء
نومهم وحلال يقظتهم. «أحلى الاحلام أحلام القيلة» كما تؤكد
الحاجة حارية.. وأحلامهم تفسر وتحقق وكأنهم موهوبون جميعا
لأيام أفقية تمر بعرض البحر كالسفن البعيدة ويوسف كان طفلا
حين رأى جده بعد موته بعشرين عاما يلثف بالبردة الخضراء ويزيد
من فمه وهو يتطوح على ظهر الفرس فى زفة «الخليفة غروب الليلة
الكبيرة لولده ابى العباس المرسى»..

«كيف يمكن هذا يا بوحجاج؟»

لا يمكن أعرف.. ولكنى رأيته. شبه صورة «المه» الخالق الناطق.

وحين كبر ودخل المدارس وقرا كثيرا كان يروي نفس القصة مؤكدا
انها مجرد «حلم».. فى ليلة سابغة السواد فى خريف عام مضى.
رأى فى المنام المظاهرات التى خرجت لتستقبل سعد زغلول باشا بعد
عودته من المنفى. وسيد درويش البحر يموت فى نفس اليوم.
أحلام صحفى مثقف!..

خط الشفق التالى

بطلق الطريق بعد المعجمى وابوتلات وابويوسف ممتدا حتى
مرسى مطروح وخط الشمال الغربى يرافق الصحراء والبحر..
تناثر على شطآنه تلك القرى البيضاء تفوح منها روائح العطور
و«بشار الذرة» وشكائر الهامبورجر والحيز الفرنسى الطازج
وفى حضن الغرب تسقط شمس نهار آخر لتعيب فى مساحات
الرماد المحضب بحمرة شفعية حين شارفت سيارة رفيق مدخل
القرية..

تقريبا عند سيارة.. «فيرارى» مكشوفة وقف ثلاثة شبان بملابس البحر وعلى ظهر حقبة السيارة صندوق من البيرة المستوردة..

وجوههم لاحتها الشمس وملوحة البحر والنسيم المشبع باليود والتسمنت في اطراف ابوفهم سمرة ترددت طلالها في الآذان وتقرشت في مواضع من الخدين بينما تلبدت خصلات الشعر في رؤوسهم وبدت في مفارقها رمال دقيقة رفيعة تشي بانهم لم يغتسلوا بالمياه الحلوة بعد حمام البحر..

لوح لهم رفيق فقذف له احدهم علبه بيرة من صندوق الثلج سقطت في حجر يوسف!

- تعرفهم؟

- وستعرفهم بدورك بعد ساعتين حين يبدلون ثياب البحر وتبدأ الحفلة!

- تبدأ الحفلة بعد ساعتين ونصل من الآن؟

ماذا ستفعل..

- سنقابل عبدالرحمن الرمادي يا ابني.. «الآن» هو الفرصة الوحيدة لنلقاه «على رواق»..

- أو يعرف اتنا في طريقنا اليه؟

لم يجب رفيق على السؤال.. وانتشغل بركن السيارة..

كانت الشمس قد غرقت تماما.. وأخلى الشفق طريق النهار لعسق لم يستطع ان يفرض سطوته فقد مزقته منذ بدايته تلك الاضواء التي تناثرت في الشوارع القرية ومداخل الفيلات والشاليهات وحول حمامات الساحة. واسمعت من السيارات ومحلات السوق ومن

داخل البنايات موسيقى «الراب والبوب» واغاني حاكسون ومادونا والسبايس جبرلز.. وبعض اغنيات مقتحمة لمغنيين مصريين لم يستطع يوسف أبدا ان يميز بينهم او يعلق الاسم الصحيح على صورة صاحبه. وربما كانت فيلا الرمادي الكبير هي اكبر فيلات القرية. وربما لم تكن. ولكن الحديقة كانت بلا شك اجمل الحدائق واكبرها. الوان من المصاييح والبلونات وانواع من أوراق وكرات واشكال الزينة لم يرد مثلها فيلا تسكن الشجيرات وتنت من احواض الورود. و«برجولات» ومطلات تتناثر حول حوض سباحة مرسوم بتصميم سرىالي لافت للانتباه. وموائد في كل مكان.. ومجموعة كبيرة من البشر يتحركون في كافة الأرجاء في سرعة وصمت. وهناك منصات للتصوير والصواريخ وماكينات الفيديو.

خرج صوته مبوحا لجفاف طارئ في حلقه «أهي حلفة عيد ميلاد أم الاحتفال السنوي بتوزيع جوائز الأوسكار؟».. انلهي!.. إنك لم تر شيئا بعد..

عموما.. هو لم يأت ليتمرح أو ينهر. وها قد حان ما جاء لأجله.. سار على ارضية كالمرايا «الابد انه ذلك السيراميك الفاخر الذي يرى اعلانه في التليفزيون حيث تتأوه اعطاف النجمة البفانتة وهي تناجي زميلها العالمي المعجوز فيرد عليها بلكته الأسرة.»

قادته المرايا يسقه عليها بحطوة رفيق الى شرفة خلفية مظلمة بتكسية كروم كثيفة تتخلل اضرعها عناقيد من مصاييح مضاء بالوان شتى من الاحمر والاحضر والازرق وكان الرجل نفسه هناك.. يدخن نرجيلة فاحرة من الكريستال الخالص يعبق دخانها في المكان معطرا شهيئا.

«ما الذى أتى بك إلى وكر الافعوان؟»

تقدم رفيق الذى حسن له الرمادى ولقيه بابتسامة مرحبة! لم ينظر نحوه هو مطلقا.. بينما التفت إليه رفيق.. وبإشارة أمرة فاجأته هتف:

- اقترب وصالح الباشا يا يوسف!

للحظات لم يدرك معنى فعل الامر . «صالح الباشا»! فريق يعرفه جيدا . ويعرف أنه لن يفرط فى عزة نفسه ولن يرضى باختلوع رمقه مستفهما فى تحفز عمز له رفيق بركن عينه وهو يفرز أطافره فى لحم عضده ويهمس من بين أسنانه . «اعتذر.. بوس إيد».. وفى نصر اللحظة مد الرمادى يده وكأه سمع ما همس به رفيق..

انحنى فقط بما يسمح له بالتقاط كف الرجل . تجاهل فعل الأمر وحركة التحريض وصمت التأهب.. وصافح اليد المقلوبة المسترخية «فعمت أنفه رائحة عطر نفاذه تخالطها حمصة عرق لم تفلح فى اخفائها أى طيوب مزيلة» رمقه الرمادى بعينين ناعستين . ومبعدا مبسم النارجيلة عن شفتيه.. مرسلا مخروط الدخان من فتحتى أنفه وهتف بصوته الذى زأر كفرقة رعد شتوى يوم ملعب الجولف وتقطع الآن فى همسة مسترخية..

- تأدبت بما يكفى وعرفت أن الله حق؟..

سارع رفيق بحماس:

يوسف شاب طيب وجده.. أقسم لى على المصحف الشريف أنه لم يكتب مقاله وهو فى حالة طبيعية.. هى «ورة» شيطان يا باشا. ومثلك جدير بالعفو والتجاوز عن الطيش!

- اسمع منه يا بن الجوفنى!

فى عينه السوداوتين المحاطتين بهالتين أكثر سوادا. وتحت حاجبيه الكثيفتين المشعنين اللتين تدوان كما لو كانتا فردتى شارب «مبروم». برق ذلك الوميض.. يصى بسمه تفرش القسيمات ملبئة بالترص والتحريرض «الرجل يريدك أن تطاوع كبرياءك وتمتطى فرسك ليفشل وساطة رفيق.. ولا بد أن تفوت عيه غرضه»..

- تملكنتى الحماقة يومها فلم أفكر فى العواقب وأعترف بخطئى! «اللعة على ما تدعيه من ذكاء.. الحماقة هى ما تورطت فيه اللحظة.. أفسدت بطولتك المؤقتة وحولتها إلى مهزلة» ورفيق يتسم ملء شذقيه:

ألم أقل لك أن يوسف لا يمكن أن يعنى ما كتبه؟..

«الله يا بن الشفقى!.. هبنا لك بما سيملا جيوبك من تراب!»
طمع فى أن تشمله بعفوك وتأمر الناس فى الجريدة ليعيدهو إلى عمله..

يفعل ربنا ما فيه الخير.. اذهب واستمتعا بالحفلة..

اصطبغ المساء بألوان طيفية تتحلل وتنفصل بلا منشور ونصاعد إيقاع الليلة ليشير فى الغبش المعتم عند الحواف سيولة تنسكب فى الصلال المختبة عند أركان الحديقة وفى المساحة التى تلى الرمال المضادة بمصاييح الحفل.. عند رمى أمواج المد الليلي «الشاطئ الخاص» مسور بقضبان مركشة ولكها حديدية صارمة حارحها تحمعت وجوه يعلوها فصول الفرجة وعيون يلمع فيها

فضول ينتظر الوليمة. ومنذ بدأت أصوات الموسيقى المسجلة وأصمات الموجة الحديدية. انسحب صوت البحر إلى خلفية لا تبحث عنها الآذان.. وتلونت في الأرجاء بداية المعزوفة المثرية لليلة تتكون بإرادة فاجرة ترسم الحنون .. همس له رفيق

- ألم تدع من قبل ليلة مثلها؟..

بلى دعيت لحفلات فنانين ورجال من الصموة وأعرف عن هذه الليالي أكثر مما تتصور..

انسى! كل ما رأيته طوال عمرك كوم.. والليلة كوم آخر ستكون أحلى ليلة في حياتك يميل رفيق دائما لصيغ المبالغة واستخدام أفعال التفضيل فالطبيب الذي يشير به هو «أحسن» طبيب في مصر والسائق الذي يقود سيارته هو «أشطر» سائق في البلد وطبعا أى فتاة يعرفها هي «أحمل» فتاة في العالم وفى كل الأحوال يتمخض رايه عن حقيقة مناقضة تماما..

- اسرح في براح الليلة كما يحلو لك ولا تبحث عنى عبد الصجر وقيل الشروق سأجده لنعود.

ولكنى لا أعرف أحدا في هذه اللحة سأغرق وحدى في العزلة والملل

. لم يسمعه رفيق فقبل أن يكمل جملة واحدة كان قد داب كفص الملح!

لا فواصل ولا حدود بين الصالات والأنهاء والشرفات وعمرات الحديقة وما حول حوض الساحة وموائد الشراب متناثرة في كل

ركن والسقاة الذين ارتدوا زيا خاصا مميرا يتحركون في كل مكان كلات «ربوت» مبرجة.. وحركته المثلثة تقوده إلى مساحات ملل تنذر برغبة قريبة في الفرار ربما قبل أن تنفتح المسام لتنفجر معها تلك البللورات وتتناثر في تراكم مطرد عدد مسارب وأواب لا بطرقها إلا المدعوون..

في ركن عند المدخل.. وضعت بطاقات فاخرة تناول إحداها وقرأها.. برنامج الحفل وقائمة الطعام.. يا أولاد الزناة!

مرة.. في سنوات طفولتى الأولى كان يعبث في «الكرار» حين عثر على مجلة نشرت قائمة بطعام المائدة الملكية في الاحتفال بزواج فاروق وناريمان!.. لا تعد شيئا بجوار هذا الفجر..

سيتحدث طويلا في سنوات كثيرة قادمة عن تلك القائمة وسيظل يروى العجائب لأبناء وأحفاد سينجبهم يوما سيصف لهم حم الطواويس وكبد الأوز المدخن ويبيض الاسترجون القزوي ومائدة صنف من ابتكار أشهر المطاعم الباريسية مقولة برحلة طيران خاصة إلى الإسكندرية بكميات سيلقى بصفها في أكياس الفضلات وعشرات الصناديق المليئة بالنسب الفرنسي والوسيكى الأسكتلندى تراق كلها على شرف الأنسة حفيدة عبدالرحمن الرمادى في ذكرى مولدها العشرين..

دائرة الحزن والمجون

أعرف تلك الوحرة تعودت عليها ألفتها ولكنى أدا لم أتعود الألم الحاد الذى يصحبها فى لحظة اكتمالها عفاؤها يلسع جانبي صدغيه ويفرزان ما يشبه إبرة من الصلب من الأيسر إلى الأيمن..

فتمزق محرقة لاهية تنغل رأسه ككرة النار.. رأى «الحاوي» يفعلها دات مرة في «داير البحر» . نفخ خذيه وأمسك بإبرة حادة رفيعة وضعها في نار القوالب المشتعلة حتى احمرت ثم دفعها إلى خده الأيسر.. فمرت لتخرج من الخد الأيمن دون أن تربق قطرة دم..

«هل يستطيع أى إنسان أن يفعلها يا عم زنارى؟».. ابتسم السمكرى المجوز وقد بررت من كرتين فى وجنتيه شعرات الشيب المتصلة فى اتساق غير متعمدة من شعرات أخرى كثيرة فى شاربيه وطاقتي أنفه.. - الحواة فقط يفعلونها يا يوسف!..

الحواة أيضا يشربون «الجاز» وينفثونه فى نيران كشواظ حادة سريعة.. ويقعلون أعاجيب أخرى تدهش الخلق وتجعلهم يصفقون طربا ويلقن بنقود «الوهمية» المعدنية فى طاقية الصبي الذى يدور عليهم مرددا عبارة معلمه «محبة وصلاة على البى» ولكن الشيخ شقيقى لم يكن من حواة الشارع رغم كل العجائب والغرائب التى جلبها معه من تلك البلاد البعيدة . هناك خلف صحراء وجبال وسهول وأنهاار تحوطها هالات السحر والغموض لم يفهم يوسف أبدا معنى تهويمات وترنيكات الشقيقى.. كما لم يفهم ما قالوه عنه..

جاء من المغرب!..

تتلون الكلمة فى مخيلته على الفور بألوان الشفق! ويصاحبها صوت «الهيائى» يؤذن للصلاة من مستندة الراوية الراقدة فى حصن «طابوة» اشقائه «أقام الهيائية مسجدا ليمارسوا فيه هواياتهم فى الآذان وترنيل القرآن . فجميعهم دراويش يتمتعون بأصوات شجية»

ولكن الشقيقى أسودا هكذا اعترض الهيائى الأكبر.. صاحب القرن وقارى السورة.

- المغاربة بيض البشرة وبعضهم أشقر! لم ينسجموا مع الرجل كادوا له كيدا فاضطر إلى «التعزيم» عليهم وتلا أوراده المطلسة بين آذاني العشاء والفجر . «رأه كل من على الأحسن وصديقه «براهوطة» وزنادى السمكرى وقد رسم دائرة «بالسلاقون الأحمر على قعر طست غسيل نحاسى وذبح «ترسه» حبة وكتب بدمائها رموزا وسط الدائرة ثم راح يعي بصوت مدغم رخيم ويرقص ملوحا بذراعيه فى اتجاه فرن الهيائية..

حلت النكبة سريعا قبل أصيل اليوم التالى.. شب الحريق فى فرن الطابونة ولم تفلح كل سيارات الإطفاء فى القضاء عليه ولكنه توقف من تلقاء نفسه فور أن أنت النيران على كل أملاك خروطة الهيائى.. واخنتق الهيائى الكبير ومات أخوه.. ولم يبق من السلسال غير المؤذن الذى لم يحد بعدها مثذنة يصعدها ليجلجل بصوته فى الآفاق.

يا دى العجب قالت باطة وكانت يومها أحلى فتيات الدابر . ألم تمس النار شعرة خارج خارطة الهيائية.. وكأنا أحاط بها سياج محرم لا تمدهو . وقد اخنقى الشقيقى فى نفس الليلة . رأته ساطة يحمل صرة نيايه وخلة أدوات السحر.. ويعبر الفناء من ريع «كحيلة» إلى الطابونة ويقف أمام الحريق ويستمس مغمعما.. ثم يلوح بيده ويهمس لباطة وهو يجاور منصرفا: القدر لرب مقتدر! السماء خلفه يضرجهأ أحمرار النيران قل أن نخو . وفوق السطوح .

لن أغفرها لك يا حسن طوال عمري!..
 عمره الخجل حين أدرك أنه لم يكن شهابا . بل افتتاحة الألعاب
 النارية التي انطلقت ترغرد فوق الشاطئ والبحر والحديقة. إذناا بيده
 المهرجان..

خط العمر في كف العاشق

لقد رأى البداية صدمة لم يدركها إلا فيما بعد اقترب بلا سبب من
 بوابة المدخل يحرسها اثنان لهما جسد الرامين أو المصارعين -
 يرتدون رى رحلا الأمن الخاص . ومعهما ثالث يبدو أنه يقوم بدور
 الفاحص المدقق.. وكان هناك ذلك الفتى الوسيم ذو البشرة الخنطية
 والعينين السوداوين «عينين باهرتي النفاذ تتألقان بحيوية لن يساها
 يوسف أبدا».. كان يرتدي تلك الثياب التي يعدها الشباب من أبناء
 الطبقة الوسطى الصغيرة للمناسبات . «الحلة إلى على الحل»
 ولكنها تبدو في مهرجان آل الرمادي . حرجا لمشاعر الانساق
 والتناغم..

انسماته الوضينة تملو وجهه المحيل.. وهو يبرز بطاقة الدعوة تبادل
 الصحمان بطرة ثم سمحا للفتى بالدخول . قبل أن يسرع الثالث..
 ذلك الفاحص المدقق ليعترض طريق الشاب.. كانا على كئيب منه.
 وقد لفته ما يحدث.. وأثار انتباهه..
 أسف.. لا يمكن حضور الحفل..
 معي دعوة.. ها هي.. وبها اسمي..
 شرع البطاقة أمام عينه وهو يسأل والانسماتة الأسرة لا تبرح وجهه..
 أريد بطاقتي الشخصية لتطابق الاسم؟..

مرق شهاب فصاحت رامسا. النعمة أم ذبل وظللت احاجاة جازية من
 الجميع أن يرددوا معها.. سبحك ما حلقت هذا باطلا فقتنا عذاب النار
 ودامت أحزان بيت الهيامي زمنا طويلا.. وبقيت أطلال الحريق حتى
 عهد قريب.. وأبدا لم تنمحي من الذاكرة حكاية الشقيطي!..

شهق يتابع أمحوبة التوارد وعيناها شاخصتان إلى أعلا تتابعان
 الشهاب المارق كنصل سيف يماني. «وما أدرك أنت بالسيوف
 اليمانية؟ هي فقط عارة ترد في مآثورات النثر القديم كما ترد بيص
 الهند.

وقف في الحصة الأولى يسأل الأستاذ تركي الأشوح ما هي بيض
 الهند يا أستاذ؟

- نوع من السويف يا رخم!

- وأيها أفضل بيض الهند أم بيض الصين؟

صفعة الأستاذ وطرده . وكانت إهانة لا يمكن أن يتحملها زعيم فصل
 الثانوية العامة الأدي الوحيد ف رأس التين الثانوية..

.. تركي الأشوح يفتى زوجته غندورة صفيرة السن يغار عليها بكل
 ما في عمره الأقل من جنون!

انتظره مع ثلة «الفاقدين» عند محطة الترام في شارع «محمد كريم»
 وهددوه بأنهم سيزورون «المدام» أثناء عيابه ويقومون بالواجب
 عوضا عنه..

وأمام وكالة الشقيطي في شارع العطارين ضربه حسن الغريب
 الأولى وآخر مرة.. قنبه له سيد المراسي وأوسعه ضربا.. كسر عليه
 «متر القياس» الخشبي ثم جلده بالحذاء على مؤخرته

عبسة اضطرار مهنى منضبط واجهه الرجل:

- ليس لها لزوم فأنا أعرفك . وصيحتى لك أن تقصر الشر وتبرح المكان .

لا أعرف سببا يضطرنى لهذا قبل أن أقدم هديتى لصاحبة الحفل وتطلب هى منى أن أعاد ١٣١٣!

ودون أن يترك للأخر أى فرصة لمواصلة الاعتراض أو النقاش انفلت من أمامه . لم يجر . ولم يتكأ . كان واقفا . ولم ينظر خلف .

تورد وجه «الفاحص» ولم يدر يوسف - حتى بعدها بزمن ممتد والذي دفعه للتدخل اقترب من الرجل .. وهتف مؤبدا .. هذا الفتى يحمل بطاقة دعوة فكيف تحاول منه؟ .. استدار إليه وقد أدهشه تدخل رجل لا يعرف .. وما شأنك أنت . و . تذكر فجأة فتهتف به أنت هو .. الصحفي فى ملعب الجولف .

- نعم وكنت مع عبدالرحمن بك منذ دقائق .. تحول الموقف تماما . وأحس أن الرجل يخشاه ويحاول أن يقرب إليه ..

- ولد أحمق وسيورد نفسه مورد التهلكة ربنا يستر ومضى رافضا شدة أن يزيد إضاحا .. ابتعد عنه حتى اختفى ولم يحدث أن رآه بعدها!

هل أحس بالدوار ؟ هم لم يزد عن كأسين . أه لو رآك حسن أو الحاحية جازية إذا لطار الصواب وطارت معه أشياء أخرى كثيرة . مع أن حسن مثلا «حشاش قرارى» وله فى عالم الدخار الأرق صولات وواد . ولكنه لى يقتنع أبدا بأن الحشيش محرم كالخمر .

- شوف يا ابن والدى .. الحشيش لم يذكر كالخمر فى القرآن!

عجبا يا حسن .. حديث الرسول يقول .. كل سكر فهو حرام - كل مسكر . وليس كل «مسطل» ..

كانت «الحلسة» منعقدة هى تعريشة السطح . ورغم «الهواء» فقد دارت رأسه على «الريحة» مثلما تدور الآن .. لاند أنها لنطشة «النبذ» على معدة خاوية ..

أحلى خلف القبلا تماما من السيارات ليكون مقر «للبنوة المفتوح» . مساحة لا نقل عن المساحة أمام جامع المرسى .. صفت بها موائد طويلة يعلوها كميات خرافية من ألوان الطعام واضاف لا يمكن أن نعبها ذاكرة .. وقف ويده طبق كبير يحاول أن يحصر ما يمكن له أن يتناولوه . وكان بجواره ذلك الرجل الأنيق الذى همس له بابتسامة ححول . كل ولا تسأل عن اسم ما تأكله . وضاف بعد لحظة عشت فى أمريكا وفرنسا وألمانيا . ولا أعرف ثلاثة أرباع صنوف الطعام التى أراها الآن!!

على حافة السور الفاصل بين الحديقة ورمال الشاطئ جلسا متجاورين .. كل يحمل طبقه .. ياكلان ويتعارفان ..

يوسف الشفقى .. صحفى ! ..

هانى الكردى .. أستاذ مساعد بكلية الآداب ..

أسهل منحدر صاعى مزروع بورود صينية . رأيا الفتى الخنثى ذا العيين الفانتين . كان قد أقعى بحوار بدوية عجور- ربما استجلبت خصيصا- كإحدى فقرات الحفل وكان كفه فى يدها .. تحملق فى وجه الفتى .. ثم تسكب عينها فى كفه المفرد .

تغمض.. وتسارع أنفاسها..

- أنت العاشق والمعشوق .

تجهش فجأة بالبكاء.. يهتز جسدها في عنف . يشحب وجه الفتى ولكنه لا يفقد الابتسام.. تنسكب دموعها على الكف المقرودة تقلبها لظهرها ثم تنحن وتقبلها.. وتتلفض واقفة..

- إلى أين يا خالة؟

- ما عاد ينفع.. المقدور مقدور..

تجري ونعوص أقدامها في الرمال تنكفئ وتهض.. تصل إلى مرمى المد تركع على ركبتيها.. تملأ كفيها من الماء المالح وتنسكب على رأسها.

تسارع أنفاس الفتى وتعيب البسمة الوضيئة وتندافع الدموع من عينيه . يرتعد هائى . ويقبض على يد يوسف وكأنه يعرف منذ أمد طويل وليس فقط من ساعة أو أقل . ويخرج صوته محنوقا..

- ماذا رأت في كفه؟

وازداد أفق الليل حلكة.. والتوت عصة في صدره وتمنى أن يجد سيلا للفرار.

٣. دائرة القمر الخوف

صلاة لبنات الحور

الوخزة تخترق جانبي الرأس عند فوديه! لا تبسرح هذه المرة تسد حاحبيه إلى زاويتي الأنف يسأله رفيق الليلة عما به فيجيبه بالجملة المعتادة.. صداع بسيط!.. يخرج الدكتور هاني من جيبه شريطا به أقراص يفض من قرصين ثم يأتي له بالماء.. هذه أقراص أمريكية تقتل الألم..

لماذا لا يهاجمه الألم إلا في لحظة ينهيها فيها لمتعة من نوع ما؟ أياكون نوعا من الندم المسبق؟ تردد طويلا في مواجهة ذلك الطوفان من الدكريات المحتلطة تتدفق على خاطره قافزة بلا نسق من عمر لعمر ومن مكان لآخر.. وأراد أن يهرب لكن الألم أغلق عينيه وداخل السواد تقاطعت تلك الأشكال غير المكتملة مكونة من السواد والياض.. خطوطا ودوائر تتقاطع وتراوغ يصاحبها إحساس من هثيث مضمّن لا يصل أبدا إلي درجة القبيء ولكنه يظل جاثما حتى نصفو الرؤية ويتبدد الألم..

مد يده تريد أصابعه أن تتشعث وتقرز أظافرها في جسم لين.. سألوه هاني يده في ثلبيّة سريعة غير مطلوبة.. كانت يده باردة..

— تريد أن تترك الحفل وتعود لمنزلك؟

— صديقي احضرني ولن يظهر قبل الفجر.

— معي سيارتي وبإمكانني أن أصحبك فالليلة غير معربة وتشعرنى بمربة مؤلمة! استطاع أن يفتح جفنيه أخيراً . وأسعده أن الأشكال الهندسية الناقصة لم تقطع مجال الرؤية كما تفعل دائماً وكان أول ما رآه ألعباً نارية تزرعد في الظلمة العلوية .

— أشعر بتحسّن ويمكنني أن أوصل الفرجة..

لم ير القمر إلا بعد أن قرغت عروض الصواريخ والألعاب النارية.. وصممت الموسيقى تمهيداً لظهور حفيدة الرمادي التي نصب المهرجان من أجلها..

احمرت السماء فأغربت حلقة الليل . وتورد قرص القمر المظلم في "حضور" فظ وكأنه يوشك على السقوط في قلب الحديقة

... خالته "روضة" جاءها "هدلها" فرحلت إلى بلد الزوج . قرية في ريف البحيرة تتبع مركز شبراخيت.. الرجل كان عمدة أو شيخ بلد أو ما شابه! وكان يستضيفهم شهراً في العطلة الصيفية من كل عام.. وعلى ضفاف الرياح البحري... رأى ذات ليلة.. "خنفة القمر" . تورد القرص مثلما يحدث الآن.. وطاف الصبيان والسات بشوارع القرية يدقون علي الأواشي النحاسية في ضجة توظف المؤني وهم يهزجون مناشدين "نات الحور" أن بعفون عن القمر ويطلقته من أسره...

قالت عجوز طاعة شهدت "هوجة عرابي" أن الحور لن يفلت القمر إلا بقربان. وليلتها تطوع الحاج "نسوي" زوج حالة يوسف

فلذبح نعبته "العبورة" ليفدى بها القمر.. ولع سنا القرص المخوق منعكسا على الدماء الحارة.. فانكس أسر الأسير . وتعلمت الزغاريد وهي زحام الذين تحلقوا حول "الذبيحة" سحنت دماء الكثيرين واقترح الفتى الذي يتزعم دائماً مباريات "الحكشة" أن يلعبوا في جرن "أبو شوشة" .. واللعبة في الجرن تؤدي بطقوس لا بد أن تنتهي باختباءات سرية في "القنابة" الجافة خلف الجرن أو في دغل الصمصاف المحاور "للمصلية" على حافة الرياح . وربما تسلل البعض إلى أبعد في حنية "درويش" حيث تعطي أوراق الموز العريضة مساحات اللقاءات العصبية التي تشوبها المخاوف المرتعة من الانكشاف أو تجاوز المعابشات الطاهرة . في ليلة القمر المختنق تتمدّد في ردة إثم ظل يورق أمداً طويلاً.. لم يكن قد مر وقت طويل على "بلوغه" ودخوله دنيا "الاحتلام" .. وكانت لياليه تعاني دائماً من الانزواءات التي تحاول معالجة "الفوران" والاستمناء بحلف عنده دائماً إحساس بالذنب والدم والقذارة خاصة بعد أن سمع الشيخ "جاد" ينصح الأولاد في راوية دابر المحر ويتلو عليهم حديثاً يدور حول "ناكح يده" ! . ولعله ليلة "الجرن" لم يفكر في أكثر من لعبة "رجالة وسنات" التي يمارسها الجميع ولا يستطيع أحد أن يتخطى فيها حدود المداعبات "اللمسية" حتى فوحيء بالولد "جريشة" يمد يده ويمسك عصوه! .. أدله أن يكون جريشة بالذات من هذا الصنف . فهو أضحهم وأكثرهم عدوانية كان أبصر البشرية مكتنز الحدين.. "أجرودي" ولكنه كان شرساً ويستطيع أن يضرب "أتخن تخن"!

هل أطاعه خوفاً . أم أن فورانه هو الذى قاده خلفه إلى حبيه المور؟.. لم يستطع أن يجيب علي السؤال حين خطر له وهو يتقياً في بيت خالته ويتظاهر بالمرص ويصر على العودة إلى الاسكندرية في الصباح (جريشة ضربه بلا سبب بعد أن فعلها معه وهو يحذره من السوح بالسر . والواقع انه لم ينبس بشت شفه وددس الامر في سابع أرض . بل وأقلع تماماً عن زيارة حالته وعن شهر المعطلة في القرية)

أفاق من رحلة القمر المحنوق في القرية.. على قمر آخر يختنق على البحر.. اجفل وارعد.. حين فطن الى انه مازال ممسكاً بيد هامى الذى اندمج في الفرجة..

صفان من نافخى الأبواق برى أبيض موشى بحيوط ذهبية بطلقون نحن «الأوفرتيرة» وعلى بساط من طنائفل المعجم الثمينة تمتد من داخل الفيلا إلي حوض السباحة.. جاءتة تحطو وحولها كوكبة من فتيات وفتيان الأسرة . أمواج من الجمال والثراء والمطر تنداح علي ضفاف الليلة ولا تعباً باختناق كل الأقسام في مجموعات المحرة!

.. وأنهار من العسل المصفى

وتزلق علي المشمشى كقطرة عسل على سطح بللورى سمع كثيراً حكمة تتناقلها ساء الأسرة عن «ستى سوريا» أنها قالت «الحاء والعز غسل البنات » و«هالة» بنت أكبر أولاد «عبدالرحمن الرمادى» وأقربهم اليه . والذى يدير امراطوريته المالية مترئساً علي أشقائه الأصغر منه..

لم يحب عبدالرحمن ناث . ولم ينبج واحد من أولاده سات إلا حسين الذى أنجب وحيدته «هالة» فأصبحت قرة عين الرمادى الكبير.. ودرة الأسرة التى تحاط بغلاف من «الكريستال» غير القابل للكسر أو الاحتراق . فقط يعكس الأضواء عليها لتتألأ وتتحول إلى ماسة لا تجرؤ العيون على اقتحامها! لكن عيون «الولد» فعلتها!.. والصيف هو السبب!..

حصيرة الصيف واسعة!.. والبراح يتمدد بطول الأزرق العجوز! وهالة لا تحب أن تسجن في حوض السباحة الفاخر.. تريد المالح بأمواجه المتلاطمة وتحدياته الخطرة.. وبعد أن ثارت وهددت وأضربت عن الزيارة اليومية التى تهدده عواطف الرمادى الكبير وترطب جفاف أعمافه الهرمة صدرت الأوامر بإبعاد احراس الذين ينزلون البحر معها لحمايتها..

وكان الفتى الخطى ينتظر على ناصبة موجة . حين رأى

عروس البحر

تجمعت حبيبات الشهد علي السطح الأملس وتلامست.. وتجمعت فكوت قطرة . تخللت القطرة ومضات بللورية فصفحتها..

تكوررت... وتدحرجت.. انزلقت... وأول النهر قطرة مطر.. أو قطرة عسل... أما البحر فلا يجرى في تيار السكون.. وموجهه يصخب وينمرد.. يتحرق للقاء النهر عند المصب... (مرج النهر والبحر إذ يلتقيان... سبحانه!)

سماء أبوه «زين العابدين» واختصره الجميع إلى زين! من سوق «غريال» أتى . ذات صيف يحركه الفضول ليرى ما يسمع عنه...

«رحلة يوم ونعود آخر النهار!.. نسبح في بحر ماريبا؟ لن يسمحوا. العبور إلي هناك أصعب من تخطي الرزخ ودونه اختيار الأعراب! لكننا شياطين ومعجونين بماء العفاريث! لن نستطيع!.. راهنوني...»

استطاع «زين» في ذلك النهار أن يمتطي صهوة البحر.. ليرى العروس تخطر على حبيبات الزبد..

.. (ورأى الشاطر حسن عيون ست الحس . فهام بها وهامت به .. وكانت بينهما بلاد الله وخلق الله... اليها سيقطع الصحاري والقفار ويمر سلال «الغيلان» .. سنسأله أمنا الغولة عن كلمة السر فيلقى عليها السلام.. وستسمح له بالمرور: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك) تشير له إلى مفارق الطرق... طريق الندامة. وطريق السلامة وطريق الذهاب لا يعود!...

وأخطأ الشاطر زين عند المفترق!

.. تتوهج في الشرايين نشوة رغبات حارة.. تلسع تحت الجلد . تمزج رطوبة «أب» الثقيلة بنسيم البحر برائحة الأعشاب المشبعة باليود وأبحرة الطعام الممد في محلات أمريكية الأسماء .. ومن متجر يبيع الأشرطة تنبعث من المجسمات الصوتية أغنية تتحدث عن الحبيب الذي هو نور العين وشاغل القواد.. وفي شرفة قرية من النحر راديو كاسيت صغير يذيع أغنية لمطربة تنغني بأشعار نزار وتحكي ما همس به في أذنها وهو يراقصها..
الظهيره في حضن البحر دبة تنثاب . وملمس الجلد الدافئ في

الظل يسرى بالخدر حتى السماء. ، فإذا التقينا تقطرت في الأشواق حبيبات سائلة من نشع الشهد

شفتا زين.. وشفتا هالة... كانا يرتشفان ويشرقان بتحررة لاذعة.. من كفى صيف مدرار تظفر سماؤه سيلاً من هسل!...

.. ولم تكن الجنة بلا سدة . وكان المعبد يخفي رهبانه في الأروقة المعتمة.. ريش الكل بين الفلال . وتكررت قصة الخلق والعصيان فالسقوط...

لحامد عبدالرحمن الرمادي الابن الأوسط ولد يُعد للعرش.. والخطوة الأولى هي الحصول على انة عمه قسرة العين ودره الزمان...

جاسر حامد الرمادي . وهالة حسين الرمادي.. ليسا فقط ابني هم ووارثي الامبراطورية.. بل هما رفيقا طفولة وصبا وزميلان في الكى. يو سى (احروف الأولى من الاسم الانجليزى للجامعة الأمريكية في القاهرة . علامة الجودة، ودلالة التميز . وأروقة القراية المكملة لوجاهة أهل الزمن الجديد...).

خط طيران النورس

حين تخفق أسراب النورس البيضاء على صدر البحر الأزرق وتحط لتلتقط القوت فتبدو كأنها بعض من ربد الماء . تصلح موضوعا للوحة.. أو خيالاً لشاعر.. ولكنها حين تقترب لا تبدو جميلة فقط عقبان بحرية شرهة دميمة!

من يستطيع أن يختطف سمكة من منقار المورس؟ من لا يسمع

صراخها نقاتل فتقتل من أجل ما تحوره؟ زين العابدين لم يسمع... ولم يعرف شيئا عن النورس!

.. وهالة بالنسبة لجاسر حيرة لا تناقش وهي جزء من مستقبله الذي لا يمكن لكائن أن يعث به! لم يسأل نفسه هل اشتعلت نيران الغضب والقمّة في صدره لأنه يحبها أم لأن هناك من يسنّاه امتلاكها..

— شاهدوك تعيّن مع صعلوك!..

— هل يعد صعلوكاً وهو معيد حصل علي الماجستير ويحضر للدكتوراه؟

— تعترفن؟

— أجه!

جاسر لا يستطيع أن يمس شعرة من الماسة الجدد والابن الأكبر. والنصح لم يجد معها وحين صارح عمه بالخطر قال (لا نملك إلا ابعادها... وتأديب الولد!)

أحضروا له «زين» ذات مساء.. لابته. ثم حذرته. ثم سه.. وفي الخارج تلقفه مجموعة من الأوعاد أوسعوه ضرباً حتى حطموا عظامه.. ألزموه فراش المستشفى شهوراً طويلة. ولكنه يوم خرج كانت في انتظاره!..

— أهر نفس الفتى الذي قرأت له العرافة كفه؟

— هو... زين العابدين!..

نظر يوسف إلي هاني طويلاً (أنت تعرفه إذن؟)

— هو معيد في القسم الذي أعمل به أستاذاً مساعداً...

— ولكنك لم تأت معه؟

— كلا.. فأنا مدعو من المعسكر الآخر..

وصمت الرجل بطريقة فهم منها يوسف أنه لا يريد أن يواصل الحديث في الأمر! ومع ذلك لم يستطع مرواغة فضوله أهى من أعطته بطاقة الدعوة؟..

أزعجته سذاجة السؤال ولم يضايقه أن ينجاهل الآخر الإجابة!... وتعلقت كل العيون بصاحبة العيد... وانمجرت الموسيقى مع أصوات نقي أغنية عيد الميلاد «هالة».. تحيط بها حلقة من سات الأسرة تذهب لتطيع قلة على خد الجدد الذي يتقدم بين أولاده ليرافق حفيذه المعبودة إلي كمكة العيد الفاخرة ذات الطوائق العشر وتطفأ كل الأنوار. تبقى فقط عشرون شمعة ترعش شعلاتها. وتبدو تحت الضوء الخافت للمقمر المختوق كأنها جمرات تنقد في أحشاء رماد أسود... حتي تطلق الصواريخ الملونة مرة أخرى. وتطفئ هالة الشسوع ويصفق مئات المدعوين وتعود الأنوار للمكان مع احتضان الرماد الكبير لحفيده وهو يهديها قلادة الألماس المربعة بواقيت زرقاء.. همس هاني مبهوراً على عناق الفتاة ثروة لا تقل عن ثلاثة ملايين!..

كيف استطاع زين العابدين وسط حلقة الحصار المحكم حول الفتاة أن يظهر فجأة أمامها، تسبقه ابتسامته العذبة ويديه علبة المخمل الزرقاء ويقدمها.. ويهمس.. — كل سنة وأنت طيبة...

دائرة للقربان

القارب ينزلق في بحر ريعه رخاء. لا يتنبه لدوامات الأعماق
إذا أغمض عينيه أحس بالدوار. يترك نفسه أحياناً لتيار يحمله في
قلب الظلمة أمواج من مخمل لين تذاع أعطافه. تغريه بوش
الغفوة. يستسلم حيناً لأحاسيس الكمون داخل الرحم. وذكريات
مطموسة لم تبت منها إلا فرق مشعته...

رائحة «المغات» المحوج تعبث في الحجرة محتلطة برائحة لبن الأم
وكشافة الهواء الراكد.. لا يوجد منفذ، فالشباك مغلق حتى لا
تتعرض الأم لثرلة برد تسلمها لحمى النفاس. والباب مفتوح على
عمر طويل لا تطاله الشمس مظلم أبداً كالقسو القديم في بيت
الربيع.. و«الناموسية» تحيط بالفراش من كل جانب.. وكل شيء
عطن مبلل. فطوال الشتاء لا تحف الثياب ولا المناشف. رطوبة
الإسكندرية حاضرة في شتائها وصيفها... ولكن «لمبة» السقف
الكليلة تسقط بصيصاً على وحه الوليد. تلمع عيناه الواسعتان
يصلى الجميع على النبي اتقاء للحسد. تقول «الداية» وهي تدفس
أصبعها السبابة في سقف حلقه «باللحوس» بسم الله ما شاء الله
الولد في جمال سيدنا يوسف!

... وسموه يوسف الأحلى! (أما نصر دائماً علي أنه «خنسر» ولم
يعد فيه ما يمت للحلاوة بصلة.. تكرهه؟ راما. لا أحد يعرفها
مثله. ولا أحد يحبه مثلها! بينهما ذلك التعلق الغريب الذي يعبر
عن نفسه دائماً بكل ما يناقضه!. قدفته يوماً بحجر حين أغاظها
فشجعت حاجبه وانهمر سيل الدماء مرعباً وسقطت هي من

طولها قاطعة النمس ولرمت فراشها يومين كاملين لم تحف لها دمة
ولم يرقأ لها جفن! وفي يوم آخر ضبطها في حضن حسنى السماء
تحت السلم، رقعتها علقة اهترت لها أركان البيت. ولكن أحداً لم
يعرف أبداً السبب الحقيقي. قال للجميع أنها سبته وأظالت
لسانها عليه... وقبل أن ينام دخلت عليه حجرة البرج. قبلت يده
وبكت وهي تقسم له أنها «أول نوبة وآخر نوبة». وطيب خاطرها
وصارحها بأن أكثر ما ضايقه في الأمر أن يقبلها صبي السماء
وقفظانه مغمم بالزفارة!

. لماذا تذكر راما الآن وهو يراقب استسحاب هالة من وسط
المحتفلين إلى داخل القصر والدور الأعلى شرفة تطل علي الجانب
الأخر للحديقة. الجانب المعتم الخالي من فعاليات المهرجان!
(رددها لنفسه وهو يضحك) البنت لأبد ستفعل كما فعلت راما.
حاصة وقد لمح بطرف عينه الولد زين يحتفى حلف «البرجولاه»...
تختلف الأماكن باختلاف الطيقة.. راما تحت السلم.. وهالة بأعلى
الشرفة... لا يدري ولم يفهم لسنين طويلة بعدها حقيقة الدافع
الذي حركه ليتسلل متابعاً خطوات الفتاة (غريزة الصحفي؟ كلام
فارغ!!) لكن الذي فاجأه حقيقة أن يلتقى بهاي يفعل نفس
الشيء... (زعم الدكتور فيما بعد أنه كان يقتفى خطوات صديقه
«زين»)

والله؟.. وأين زين؟..

آه يا زين العابدين... يا ورد منور جوه البساتين!
قرا كثيراً عن علي زين العابدين. ذلك المعشوق من آل البيت

ابن الحسين معشوق المصريين . ليس كل المصريين فهناك هؤلاء
المحتفلون بعيد ميلاد حفيدة الرمادى . الذى لا هو سنى .. ولا هو
شيعى .. ولا ملة له بين أهل الأرض
.. قبل أن يحطوا أحدهما أول درحات السلم الصاعد للطابق
الأعلى . اندفع من بينهما هابطاً كالسهم فتاهما الخطى ذو العينين
النجلاوين ..
يجرى رين عابراً الحديقة إلى الظلمة الداكنة خلفها . وتسعه
الشياطين ..
كان هانى بهم بالحرى خلفهم . قبص يوسف على ذراعيه
بمنعه .
— أشعر بخوف قارئة الكف ...

السمعت الدموع في عيون الرجل الرقيق . ولكن يوسف سأل
بحزن:
— وماذا يمكنك أن تفعل ؟ . دعه فربما استطاع أن يفلت منهم .
خط الدم (لحظات الوعي الأخيرة في ذاكرة الصحية)
لم تذكر نشرة الأرصاد شيئاً عن خسوف منظر 1 فكيف اختنق
القمر ؟

سأل نفسه وهو يربص خلف سيارة في الساحة الخلفية انعكس
الضوء الأحمر علي وجهه في مرآتها الجانبية وأنفاسه تتسارع . في
صدغيه ببض دفق دموى وصدرة يشق تحت ضربات هائلة .
«هالة ! .. ماذا سيفعلون بها» ..
صحة الأقدام والسيقان التي تقفز فوق سطوح السيارات المترصة

تبدو وكأنها إبقاعات تعرفها فرقة طبول جنانزينة ... وملوحة العرق
تكوى جفنيه ...

.. مالك يا زين ومال بنت الرمادى ؟ .. ومال الانسان وقدره ؟ .
[رسالة الماجستير كانت عن القدر في المأساة الإغريقية . أمه بائنة
الخردوات في سوق غسبريال شحرت وهى توبخه بلاهم ..
حاتبقى دكتور في إيه ؟ .. ياخى اتلهى . افنكرتك ستصبح دكتور
فيما يدعونه بالكمبيوتر ! .. نطقنها صح يا زين ؟] .
.. نطقنها صحبة يا أم زين ! ربنا يخليكى ادعى لى أخلص
الليلة .. سأركع علي ركبتى
.. وأقبل رأسك ويدبك وقديمك وأتوب أمامك على المصحف !
الخطأ التراجيدى يترصد المصير !

وفاجئه ضوء ماهر من كشاف طوارئ يوجهه أحدهم ..
(المصير ؟ .. أى بطولة فيما تمضى إليه ؟)
تثلجت قطرات العرق البازفة من مسامه .. ولم يتبين ما خلف
الهالة المشتعلة ..
انصب حاسر الرمادى يسبح عرقه مكلتا يديه . ولهائه بدوى في
أذنيه كالنذير ..

— هاتوا الكلب والحقوا بى ...
خارج كردون القرية . في مساحة معتمة إلا من ذبالات القمر
المحنوق .. على الشاطئ كانوا هناك وفي البحر آخرون يدورون
بقواربهم في انتظار أصوات محركات القوارب يحفيها هدير
الموج والضجة الصاخبة في الحفل القريب ..

■ الفصل الرابع

أدرك زين ما ينتظره... وهم يدفعونه إلى المياه... (عوام يا عوام
اسبح يا بطل السباحة... وابحث عن عروسة بحر تعانقها يا ابن
الحرام...) صفعة ولكمة وضربة على الرأس... وانكماً في المياه.
طفرت دموعه... آه يا أم زين... آه يا بوياء... يا أخواتي...
آه يا هالة!...

طعم الماء المالح يختلط بطعم الدم... وأصوات محركات القوارب
تعلو.. وتقترب!.

٤. خط الدم

ضحى اليوم التالي

أجمل ما فى حجرة البرج هو نفسه أسوأ ما فيها، شرفة بعرض الجدار تم تقفيلها منذ سنوات لتصبح جزءاً من الحجرة. ولم يكن الجدار الذى أضيف سوى مجموعة من ضلف متجاورة «بفصلية» صنعت من إطارات خشبية تضم مربعات الزجاج التى تكشف البحر للرؤية.. ولها من الداخل سنائر صنعتها «باطة» من الكريتون المشجر.. تصمم وتنفّح وفقاً للمراج.. وليلاى يحرص يوسف على إغلاقها قبل أن ينام لأن دخول شعاع واحد من ضوء النهار كفىل بإيقاظه فلا ينام ثانية

أحس بالوخز فى حديقته تحت جفنين مطبقين على مرثيات لونية معتمة يتحللها ابيضاض يتمدد لينفجر فى وقع سوداء تسبح فى هوصى واستطاع أن براوغ الوخز مرة أخرى ولكنه أحس فى نفس اللحظة بمثائه تلح ممثثة.. واضطر لفتح عينيه.. ليقتحمها جحفل كامل من أشعة الشمس... آه نسيت أن تصرد الستارة قبل أن تنام! ولكن متى تمت؟ متى عدت؟.. وأين كنت؟... «مبعاد رفيق وحفلة آل الرمادى...»

ضربته مطرقة على رأسه حين حاول أن يركر ويستدعى الذاكرة
لعله مجرد حلم .

«انتظر» رتب الأحداث وفقاً لزم من حدوثها! حين اختنق القمر
وصدحت موسيقى العيد وامتدت يدها مع يد جدها لتقطع
الكعكة... لا.. قبل هذا... رفيق يختفى.. وهاني يظهر... من
هاني؟ آه نعم... أستاذ أدب إنجليزي أو ما شابه وجاء معه الفتى
الحنطى ذو العينين السوداوين... كلا الفتى كان قبله... أو ربما جاء
بعده.. «جيبها».. ياعم عبدالحليم ليس هذا وقته . وقف يصرع
مشائه فى المرحاض وهو يسند جبينه الملتهب لبلاط «القيشاني»
البارد...

«على مهلك».. واحدة واحدة.. الفتى اقتحم دائرة الأسيرة! قدم
هديته للبنت الفرس!

البنت الفرس؟.. مجرد تشبيه.. ما علينا.. بعدها اختفى
واختفت رحاب! رحاب من يامس طول؟ بنت الرمادى
اسمها هالة! وما له هالة! رأيتها تحتوى وتصبعد السلم.
الفتى الحنطى هو الذى اندفع نازلاً وطاروا وراءه كشباطير
الجحيم...

الآن اتضحت الليلة . وأسمرت الذاكرة . عن المشهد الأخير على
شاطئ البحر.. أقعى جالساً القرفصاء فى أرض الحمام.. لم
يشعر حتى «بأستك» اللباس وهو يلسع خصبته . خارت قواه..
ياولاد الذين.... شعر بمعدته تصعد إلى حلقه... ولعابه يجف فى
فمه...

«لعله حلم؟»

لست الصديق ياسى يوسف حتى تحلم بالكواكب الساجدة
والقنرات السمان.. (يارب اجعله مجرد حلم . لعلى أفرطت فى
الشراب واستلقيت على الرمال فأخذتنى سنة من السكر اليبين
وفيهما حلمت! أحل هذا هو ما حدث!.. كلا . إذا كنت قد
رقدت صريع ثمالكث فمن الذى أحضرك إلى البيت؟

وضع رأسه تحت «الدش» . كانت المياه باردة (الجدار الذى تتخلله
مواسير المياه مشترك مع الجار ولا تطوله شمس)...
فى الفجر نزل الغل.. وصاح سيارة هانى تبله الرطوبة.. وصع
كلتا يديه ثم مسح بهما على وجهه... وركب..

لم يتبادلا نظرة ولا كلمة طوال الطريق... كانت دموع هانى تنهمر
فى اتصال لا يتقطع وكان ينشج أحيانا كالأطفال.. وعوى مرة
كالمرأة مكلومة. وعند ناصية دابر البحر.. نزل يوسف.. ثم انحنى
يطل عليه... أراد أن يقول له أى شىء :

— ربما نجا من أيديهم؟!

لم يجبه... وغاب بسيارته فى شبورة الفجر!

جاءت «راما» بطبق الفول بالبيض و«التحديمة» . لم تجده فى
سريره.. نادته فلم يجب. اشرأت بعنقها من خلال باب الحمام
المفتوح...

— حبة جديدة من خيابات دلوعته يامه!.. سلامته نائم فى حوض
الدش بهدومه! لحفته باطه وأم صبحى خادمة الأسرة الدائمة فى
الوقت المناسب.. لم يكن يوسف نائماً... كان يفرق!

حين توهج البحر

الطهيرة تأتلق بغلالات كهالات الماعسيوم . وعلى السطح المائع الأزرق تسلا آلاف النجمات القضية . ووسط مجموعة من السابحين كان مستلقيا على طهره.. لونه الحسلى لم يشحب ولم يزرق . وجلده لم ينتفخ . وابتسامة دهشة ثابتة على قسماته (مادا رأى فى الأعماق المعتمة؟ . صفوفاً غير مكفنة من عرقى أرملة أخرى نقيت فى الغمر لا ترح وترفض الصمود للظهير الحارة؟).

أما العيان النجلاوان الشاخصتان سظرة زجاجية إلى الفراغ فلم تغلقا ولم تأكلهما الأسماك...

سابع بحواره سألته عن قدرته على الفصوص كأنما أنفاسه واجتذب السؤال سابع آخر أحاطا به لاحظا الحسروح التى ظلت غير مندملة رغم الملح الذى امتصته... أدركا فى لحظة صد أن..... وتوهج البحر!

خط الدم

قال الجدل لابنيه فى حضور الحفيد الفتى والحفيدة الفتاة

— حاسر وهالة بعودان إلى القاهرة ويتزوجان قل أن ينقصى الشهر!

ولا أحد يجرؤ على معارضة الإرادة السية! ثم أشار للجميع أن ينصرفوا إلا الحفيد. جلس الشاب ذو الأنف المموح (يدو وكأنه كسر فى شجار قديم) والشعر الأكرت (ورثة عائلة الرمادى) سمع مرة من إحدى عمات أبيه أن الجدل كان يدعى فى شبابه

«عبدالرحمن الأكرت» وهى تحمل معنى مزدوجاً .. يقول ابن عم بعيد مطرود من جنة الرمادية أن المعنى الآخر لا صلة له بالشعر الأكرت وإنما ينسب لتعرض عبدالرحمن فى أيام فقره لكثير من «الضرب على القفا»

... جاسر نفسه طويل القفا... وله تفاحة آدم بارزة فى «سيميرية» تنسق مع الأنف الطويل المموح رفق جده بنظرة هميقة. وأشار له بأصبعه ليقرب منه. أصبح وقد ابهى راکما بوس يديه... فأمسك بأذنيه فى وقت واحد وفركهما بغلظة لم يصرخ الفتى احمر وجهه فقط وحفظت عيناه بكرامية خرساء.. وأتبع الحد قرصة الأذنين بصمعة وهمس ' عثرت الشرطة على الولد!

— كان ذلك متوقعا وإن حدث بسرعة غير مفهومة...

— سيكون هناك تحقيق... والعشرات رأوا الفتى فى الحفل!

— سكر... فنزل البحر... ففرق!

— الجروح والحدوش ستثير الشكوك!

ثرثر الفتى ولم يسمع أجد الذى تقطب حبيبه وغيامت عيناه بنظرة كابية ثم نهض وأشاح عن الفتى وخرج إلى الحديقة!

ولحجرة هالة شرقة عريضة تطل على الشاطئ (منعوها طوال اليوم أن تقترب من البحر... توسلت إلى أبيها ولكنه اعتذر بأنها إرادة الجد...! حسين عبدالرحمن الرمادى طول عمره «شرامة خرح» شطارته فقط فى الأعمال ومغامرات السوق.. أما فى الأسرة فهو عضو خامل.. كل السلطات بيد

أبيه . ولم يتردد في إطاعة الأمر الذى أصدره له بأن يطلق أم هالة...).

تساقط الدموع فى كفيها المقلوبين على حجرها!
«أعرف أنهم قتلوك يازين! ولكنهم لن يتزعوك من أحشائي
أت هنا . تنحوصل فى رحمتى تشترق فى مشيمنتى أشعر
بك تنزعهم فى جوفى لنزهر! . زهرتك تورق تنفتح عن ثمرة
ثمرك يا حبيبى المحروم...».

استتقف هالة ، بعد أسبوعين يوم قرانها لتواحه الجميع وغلى
شرطها . سيكتب الوليد باسم رين العادين أيا كان الزوج[.
تساقط الدموع على سور الشرفة وعيناها تنحرف فى المدى المنداح
تحت وهج الظهيرة . رائحة اليود وأعشاب البحر تعطرت بعض
الجسد المعشوق...

«سأنزف حبك طوال عمرى فى دموعى وقطرات عرقى ورضاب
فمى وانثاق الدم منى جرحاً وحبصاً . سأنزف حلك فى أيامى مع
مطلع الشمس وحتى يحسف القمر.. سأ . تساقط الدموع على
الرمال...

آثار خطواتنا يا حبيبى تعرفنا... نأثى إلينا.. تقودنا...

تساقط الدموع فى البحر...

سأعفى فجر كل ليلة لحظة الاختناق.. وأجرع الماء المالح
وأدخل السرداب...

تقرير الطبيب الشرعى . الموت باسفكسيا الفرق الكدمات

والسحجات والتجمعات الدموية تحت الجلد حدثت قبل الفرق!
وكيل النائب العام الذى ذهب «ليعاين» المسرح أعطى أذنه بانتباه
لضابط المباحث.

— هناك أيضاً قطرات دم تبدأ من الساحة الخلفية لقصر الرمادى
وتسير مع آثار سحب حسم على الرمال وتصل إلى شاطئ البحر
خارج أسوار القرية!.. حصلنا على قائمة بالمدعوين فى حفل عيد
الميلاد... سنسأل كل من نظن أنه رأى أو سمع!

شرد الوكيل بعينه إلى سماء بهت ررقنها إلى حد الايضاص
عند حدودها مع البحر.. وابنسم مغمغماً — أسأله.. لعله يعرف!
— من؟ — البحر!

... ومضى مبتعداً عن الرجل الذى ظل يرمقه بدهشة مستائلاً، هو
يهمس لزميله..

— فلسفة أم خفة دم؟.. «شغلانه» مقرفة!

مساء للطيور الهاجعة

الصراع يفتك برأس رفيق رغم كل ما ابتلعه من أقراص طوال
اليوم. يدور فى أرجاء البيت وهو يسب ويتشاجر متهماً الجميع
بالتأمر على إيقافه مبكراً.

— لم يوقظك أحد . فقط تحتاج للتخلص من آثار السم «الهارى»
الذى ظلت تحرقه طوال الليل . راجع سكران مع طلعة الشمس
وتشكو من الصداع؟

وللهجة الأم الصارمة ألحمته فلم يعقب وانزوى فى ركن الشرفة
بضع كمادات الثلج على جبينه! (هى الوحيدة التى يعلو

لنزله . ربما ركب مع «تنفه» من النسوان اللاتي ملأن سراية
الرمادى وكن جميعا على قفا من يشيل!
خلال رموشه التى «بربشها» لمح امتقاع وجهها امتعت اللعبة
وسرت عنه فى هذا النهار البغيض فأمن فى أغاظتها..
= كانت «ميغه»! أسما يرفع الرجل ما ساقه يعرق فى أخخاذ لا
لعد ولا تحصى.
هبت واقفة وهى تلقى بالمجلة التى تشاغلت خلفها..
= لا أظن يوسف منحلا مثلك!..
ضحك حتى كادت رأسه تنفجر من عشرة مطارق هاجمتها فى
نفس اللحظة.. صرخ بعزم ما فيه.. آخ..
يقبل المساء على حجرة البحر . ساكنة معتمة رحل الشفق
وجاء الغسق . من أجمة الأشجار الباقية فى حديقة المستشفى
القديمة تنرامى أصوات عشرات من أسراب العصفائر العائدة إلى
أعشاشها . زقزقة تبدو كما لو كانت تلك المخلوقات الرفيعة قد
أصببت بالحنون .. من خلال الزجاج رنت راما إلى سماء بدأت
تبدى بحومها وسط زرقة داكنة تتحول خوفاها إلى حمرة غسقية
تتحلل تلك الذف من السحابات البيض المتناثرة فى الأعلى .
مازالتم تمسك يد يوسف الغارق فى ساعات نوم حاوزت الأربع
منذ نقلته نساء الأسرة من الحمام إلى الفراش — جاء حسن الغريب
لبطل عليه.. «حمدت ربها كثيرا لأنه لم يشم رائحة الكحول
المختلط بالقىء الذى يملأ..» السلطانية..
= نرسل فى طلب الدكتور لمعى؟..

صوتها عليه وعلى أى شحط فى أسرة الجوينى طول عمرها
تتمتع بالسطوة والأمر النافذ . وطول عمرهم يطيعون
ويخفون ذبولهم بين سيقانهم ويتلعون عمفاتهم المحتجة قبل
أن نسمعها وإلا كانت واقعة «البعيد» منهم سوداء... حتى
الأب كان فى عز جبروته يخفض النصر أمامها ولا يخاطبها إلا
هامسا (أمرك يانعمت هانم) . وكان رفيق كلما حزه أمر من
الأمور معها يلجأ لرحاب — رغم أنها الأصغر — ويلقى
بشكاواه أمامها..
= طبعا وقد تعودنا عليه!
= الناس تظنها شامخة بأصل تركى أو شركسى ولا يعرفون
الحقيقة!
تزجره رحاب (إقصر الشر!). تعرف أن السيرة محظورة والحقيقة
غير كاملة أمامنا فكيف تريد أن يعرفها الناس؟)..
= الصداق يغلخ عبيده ولكنه يحس بها وقد جلست بقره .. هل
هذا هو العطر الذى يسكر يوسف؟ فيرت معنى الأول .. الأول
فى أى شىء؟. هجص! الصنف الذى تضمه البنت «سارة»
أجذع منه ألف مرة . بت الكلب عليها زوج يحس.. كان
المفروض أن تحضر حفلة الأمس..
= لهذه الدرجة كانت «الأردخانة»؟
لم يفتح عينيه (حالا تستأله عن الزبون «دوعرى» يابنت ودعك
من اللف والدوران).
= انفصلنا فى بداية الليلة ولم ألقه حتى الآن. ولا أعرف كيف عاد

— إذا ارتفعت حرارته...

— أين كان طوال الليلة؟ لم يكن قد عاد حين دهست أنا وسيد المرسي لصلاة الفجر عاجلته باطه قبل أن يفلت لسان راما. كان في فرح ناس أكابر في العجمي...

— شيء لله ياسيدي العجمي...

— شيء لله يامرسي يابو العباس...

شيء لله ياأباصيري يا صاحب النهج... وأنت ياسيدي ياقوت العرش وأقربك المصطفين بجوارك في القاعة تتسربلون بالأخضر والأحمر.. (هل كان يهلوس؟). كلا فهو يحس بيد راما. ويرى النجوم من خلال الصلف الزجاجية المفتوحة ويشعر بنسيمات ليلة صيفية في مدينتها. مع رائحة شواء السمك المتصاعدة من محل العدوى. إذا فما الذي ألقاه في الحب؟ ضحك داخله إذ تخيل أن بعض السيارة سيلتقطونه ويقدمونه للعزیز وامرأة العزیز. وتجري وراءه لتقد قميصه من دبر. أم تراها أحلام السجن؟ أين السبع العجاف والسبع السمان؟...

هو يعرف عن يقين أنه يهدى ويريد أن يبيع من تلك الغفوة الثقيلة ويقاوم الخدر الذي يصعد كأسراب النمل من أصابع قدميه وحتى صحن رأسه.. بدأت حدقته تتعدا الظلمة التي لم تكن ساعده سبب أضواء الشارع المنمكة. ورأى في رحام المرئيات المتقاطعة المبقعة (هذه المرة بلا صناع) عيين مجلاوين ترقان بسمه حطية « أجفلت راما حين سمعت النهمة ورأت قطرات تلمع مثلثته من بين الجفون... تقبضت أصابعها على كفه المبللة بالعرق.

— تبكي يابوسف — أتراك تحلم؟..

. لم أكن أنا الباكي ياراما إنه هاني!.. أنت لا تعرفينه!.. صديق زين العابدين ولكن من هوزين بالنسة لك؟. حتى لو حكيت لك ما فعلوه به؟. هب جالسا كالملدوغ وفي نفس اللحظة حبطت راما على صدرها مبسمة مستعيدة من الشيطان وأطلت باطه من الباب...

— ألم يستيقظ بعد؟

مدت يدها لتضئ المصباح وأنه مستويا في جلسته جفف عرقه بكه.. وراما مازالت تتلو الآيات المنعيات.

— هيا يبطل أستاذ يسأل عنك ينتظرك في حجرة السلم!

حجرة السلم هي حجرة الاستقبال. مثل حجرة الرج سميت كل حجرة في البيت باسم حجرة حسن الغريب من رمن تسمى «المقعد السحري». وحجرة سيد المرسي القديمة احتلتها باطه بعد رواجه وتعرف «المقعد القلبي»... وتركت الأم جازيه مع راما في الحجرة «الكبيرة» التي سميت كذلك منذ تروح المرحوم من الست جاريه أما «شغالات» البيت. فلهن حجرة الكرار. والحجرة المسحورة في زاوية السطة العلوية الفاصلة بين «الكات» الثالث والسطوح!...

البكاء على قبر مفتوح

لا يعرف هاني ما الذي دفعه للحضور! ولم يدرك وهو يقود سيارته انها تأخذ طريقها إلى دابر البحر! فقط وجد نفسه يندق على باب يوسف الشفقي ثم يدخلوه في ذلك «الصالون» المفتوح على

السلم والذي توح منه رائحة عطن الأماكس التي لا تستعجم كثيرا مقترنة معطر قديم رخيص وتلك الرائحة النفاذة التي تشير لوجود حياة مستقرة للفران في المكان .. على الحدران صور عائله في أطر خشبية أصانتها الرطوبة الملحية بتأكلات جسيمة تعلقت عيابه بصورة منها لطفل جميل يرتدى قفطان وطاقيه حجارى ويتعطى صهوة حصان أبيض فى أحضان شيخ خمسينى . ربح بلا سبب قاطع أن يكون يوسف وأبوه فى مناسبة ما - يوم ختاني!

كان هانى مسمرا أمام الصورة يتأملها حين دخل يوسف ورآه لم يتبادلا الترحيب . ولم يعلق هانى على ذكرى الختان. كان مشغولا بفكرة أخرى..

- تعرف أنك تشبهه لدرجة مقلقة...

«وما الذى يقلق فى أن يشبه الابن أباه؟»

- لا أقصد أباك بالطبع... أنت تشبهه «هو»...

هو من؟ .. ماذا يقصد مدرس الجامعة هذا؟ وما الذى جاء به؟ إن ساعات فرصت عليهما الاقتراب فى حفلة آل الرمادى لا يمكن أن تصنع منهما صديقين...
- أشبه من يادكتور؟

عتمت عينا هانى وانكسر جفناه... وبدأ على وشك البكاء...

- لم أظن لهذا التشابه بالأس! ولكنه أقص مضجعى حين عدت لمزلى وطللت أفكر فيه طوال اليوم. تعرف أنني لم يتمض لى حفز حتى الآن؟ لم أظن أنني يمكن أن أنام إلا بعد أن أراك مرة أخرى

كان يحملق فيه متفرسا بنظرة محمومة.. وبياض عينيّه كسواء الدم...

- بك شبه من زين كأنك أخوه! توأمه!

ارتعدت أمعاء يوسف ونبض وريد فى صدره... وأحس للحظة أنه يكره الرجل المائل أمامه كما لم يكره شخصا من قبل...

وبنبرة عدائية تقطر بروداً سأله عما إذا كان قد جاء خصيصا لبحقن الشبه بينه وبين زين العابدين؟

بلا دعوة . تهالك الآخر على أقرب المقاعد . ورفع أصابع يديه إلى جانبي رأسه كأنه يمنعها من السقوط...

- لا ... هذا أمره عارض.. وربما كان توهما منى! آه لو تعرف ما الذى ألم بى فى تلك الساعات الأخيرة! كما لو كنت شريكا فى الغدر به!.. ولا شك أنك أنت أيضا تشعر بنفس الذنب.

«أى ذنب أيها المخبول؟»... لكن هانى يتدفق كنهر أناه الفضيضان.. يتحدث فى نبرة أقرب إلى هذيان المحموم.. وعينه المتلهبتان تشرقان بالدمع الذى لا ينفرط . وصوته يتهدج كأنه يصارع سكرات الإغماء..

- كما هياك . ونفجرنا! أتصدق؟.. تفرحنا.. وربما استمتعنا بالفرحة - سرنا فى موكب الجلادين وهم يسوقون المحكوم إلى المقصلة ويركعونه على ركبتيه... ويضعون النطع والسلة التى سيتدحرج إليها رأسه... ويرفعون البلطة. لا . لا توجد بلطة فهم يستحدمون المقصلة هم يدفعون عقه داخل الشق المعد لهبوط السكين. وينظرون أولا للمتفرجين . لنا ونحن نكاد بهلل ونصفق

ونطالبهم بإتمام القتل . لماذا تنظر لى بهذا الذعر ؟ . حقا لم نفعل ذلك ولكننا كدنا نفعله . فعلناه بالإمكان . وبالصمت وبالإحجام عن مجدة الفتى . . نعم . لم نحرك إصبعنا لنحميه ! لم تصدر صوتا لتسيه الناس فيسرعوا لنجذته إذا فنحن لا نختلف عن جلاديه .. نحن قتلة.

٥. خطوط الكف..

حين أجيش هامى بالبكاء تملكته رعدة نفضت جسده وكأنه تلقى
صدمة كهربائية مباغتة..

... لقد حدث كثيراً أن رأى رجالاً تغرورق عيونهم بالدموع. وقد
بدرفونها في غزارة ولكن بلا صوت.. بلا بهنهة... مثلما كان من
همه إبراهيم وهو يسير في جنازة أبيه.. ولم يصدق نبذة صوت على
الأحسن وهو يهمس له ' عملك يبكي حزناً علي أبنائنا وقلبه يرقص
فرحاً.. دموع التماسيح!.. ربما اختلف الشقيقان طويلاً على ميراث
الجد وجرحهما اختلف إلى ساحة المحاكم طوال سنين.. ولكن الدم
أكثر كثافة من الماء وحزن العم بدا صادقا في عيني يوسف أما أن
يجيش رجل بالبكاء ويهتز جسده ويعول كالحرير فلم ير مثلها إلا
مرة واحدة . حين ركع حسن الغريب على ركنتيه بجوار السربير
المسحى عليه جسد «هائم» وانفجر في بكاء صارخ رافضاً محتحاً..
وقد أحاط وسطها بذراعيه وراح يأمرها عاضباً بأن ترد عليه وبهرها
بقوة لتنهض بينما تكأكأت عليه نسوة البيت كلهن: حازية وباطة وأم
سعد وحليمة زوجة سيد المرسي ورحن يجذسه بعيداً عن حسد
المتوفاه.. وهو يقاومهن. ويلطمهن ويلطم وجهه وإذ شاركهن

كنا شهوداً... يجب أن نفعل ما يفعله الرجال...».

وماذا يفعل الرجال؟... قلت بلسانك أنا وقفنا شاهد ولم نحرك حتى عضلة اللسان لنطلب الغوث للمضى المغدور فهل يعد هذا فعل رجال؟..

اصطحبه إلى اللسان الصخري المجاور لطابية «قاينباي». والليل يهلب أضواء المصابيح الكهربية الممتدة في عمق اللسان.

هنا أقدمهما... كانت دقات موج خفيفة تلبل الصخر بقفاعات زيد تلالشي عند التواءات والفجوات الزلقة التي يكسوها طحلب أخضر (يبدو أسود ليلاً... ولكنها ذاكرة الألوان)

وانحنى ولمسه بأصبعه... وهو يرمق صاحبه... «أؤمن بوحدة الوجود؟»

— سؤال غريب!... ومع ذلك فليس لي إلمام عميق بالفلسفة! ولينا هذه لا تختمل حوارات عن الوجود والعدم والحق والخير والجمال!..

— أحس أن هذه المياه بها جزء منه! ألم تمص آخر رشفة من رحيق حياته؟ ألم تتخلل مسامه بالملح واليود ل تمنع جلده من التحلل؟ إذا فهو «موجود» فيها بشكل أو بآخر. هذه الحفنة من المياه اسمها رين!

ركع بجواره ونظر في عينيه... كان الالتهاق قد انعكس عليه ضوء قادم من بعيد يبدأ متورماً مع أن البؤبؤ كان متسعاً يكاد يملأ الحديقة!.

«أنت من يشبهه ولست أنا! عيناك هي عيناه حتى ارتجاف طاقتي الأنف وتدلّي الشفة السفلى... بل أنت هو نفسه!» نهض هاني دون أن يعلق واستدار ومضى بخطوات سريعة يريد أن يمر المشى إلى الشارع. ناداه فلم يلتفت. هب وجري خلفه لحق به عند

الرجال ومجحوا في إبعاده فرّ على الأرض راكعاً مواصلاً عويله راعياً ذراعيه لأعلى يحار محتجاً. أهي مشيتك أن تأخذها مني؟ لم وأنت العادل الرحمن؟ بماذا ستفعلك وأنت الغني؟ وحين نهزه الشيخ أبو الروس وطلب منه أن يستغفر صاحبه. سأستغفره وأتوب إليه ألف مرة... ولكني فقط أسأله لم؟.

لم تمر هانم بعد زواجها من حسن لم تكمل العام ولم يدر عليها الحول فقد حملت من أول شهر. وفي أوائل التاسع سقطت من على سلم السطح النقال وهي تضع آخر صينية من صواني الصلصة في الشمس... ولم تفلح الجراحة العاجلة في إنقاذها أو إنقاذ الحنين

كانت مازالت «عروسة»... وكان حسن في عفوان انتشائه وتمسح بالرجولة الراوية المرتوية فسترت داخله — وكأنه هو من أجهض حملته — كل الملهذات الموعودة وهناءات الشباب النضر وأحلام القطوف الدانية..

وما انبسط بعدها أبداً تقطيعاً ما بين حاجبيه ولا استطاعت عشر سنوات تالية أن تفعل به فعل النسيان لتعيده إلى أرض التمني والعشم من جديد...

ودخلت راما بصينية الشاي ولم تستطع كعادتها أن تلجم لسانها — يا خرابي! الرجل يبكي وينوح كالارملة! ماله يا يوسف؟

بهرها ودفعها دفعا للخارج واستدار حانقا إلى ضيفه — ما تفعله بنفسك تهويل ومبالغة غير مفهومة من يكون بالنسبة

إليك في النهاية؟ لا هو ابنك ولا أخيك ولا من بقية أهلك! رفع إليه رفيق عينين محموتين عامرتين بالدهشة «كيف؟ لقد

متحف الأحياء المائية «لماذا ذهبت؟...» التفت ورمقه بنظرة كابية
«لن نكون أصدقاء . فأنت لا تحبني!» تباطأ ذراعه عودة حاليه
علي غير توقع .. وسارا إلي مساحات الضوء عند بداية الكورنيش
= الناس لا يتصادقون يا أستاذ بين يوم وليلة!
= لماذا أتيت بي إلي شاطئ البحر؟..
= لكي أدفعك إلي القفز في الأعماق وأخلص منك.
بضحكة صاحبة اتبع كلماته الهازئة ولكن الآخر ظل يرمقه بحر
كثيف.. وفي جذية تامة أخبره بأنه يود لو فعلها . (عجيب أمر هذا
الرجل.. أحبب الفتى الخطي إلى هذه الدرجة؟...)

دائرة الرجل الرقيق

... من أم شامية شقراء . وأب سكندري في دماثة أصول تركية ود
كأنه فلقة «قمر».. ظل طفلاً وحيداً تحبه الأب في أصيل حياته ورحل
عنه قبل أن يبلغ العاشرة.. والألم لم تزل بعد في عفوانها..
لم ينسجم أبداً مع الرجل الذي تزوجته (كان لا بد أن أنزوحه يا
حببي حتمية ستدركها فيما بعد.. حين تكرر) لم يفهم.. ولم
يقتررب . تباعد عن عريمه الذي بدا له دائماً فظاً خشناً سوقي الطباع
(كيف ارتضت أن تلقى نفسها في أحضان هذا الحيوان؟ كيف تقبلته
خلفاً للرجل النبيل الذي كان؟) . وحين صفعه الرجل ذات ليلة
فألقاه علي زاوية المائدة البلوطية فشج رأسه قررت الأم أن تستجيب
لرجاء عمته وترسله ليقيم معها في المهجر!..
صبيحة يوم رحيله رفض أن تحتضنه! بكت وركعت وتوسلت إليه
ولكنه كان قد فقدتها أعدته عن أحضانها بقرار بارد لم يغمره لها

أبداً.. وفي بيت عمته الخشبي الجميل في «باسادينا» بكاليفورنيا قضى
سنواته العشرين التالية في مهايتها حصل علي الدكتوراه. وفقد
العمة!
أيام متفرقة خلال السنوات الطويلة قضتها الأم مع وحيدها في
اجارات صيفية قصيرة زارت فيها بيت العمه بأمریکا. وفي كل مرة
كانت تراقب تطور ذلك الفتى الرقيق الحساس من مرحلة المراهقة..
إلي الريمان إلي المنشوان! (أي عنفوان؟) وهو كيان لا يمت لأى
مظهر من مظاهر الخشونة أو العنف.. ولا حتى فوران الرجال تبدي
عليه بأى ملمح.. قالت لها العمه: هانى هو أرق من رأيت من رجال
في عمري.. له حياء العذارى وهدهد بنت البنوت..
لكها رحلت.. والأم طلقت وألحت على وحيدها أن يعود..
أصبحت وحيدة يا بنى.. وأحتاج لدفع وحودك في خريفى!
نعالم.. وعدنى خالك بأن يعيوك في الجامعة! . ماذا بقى لك في
القرية؟].. لم يبق له شيء!
لا أعرف لماذا كرهونى جميعاً.. منذ اليوم الأول! كما لو كنت قد
أطلقت حولي تياراً معاطيسياً يجتذب الكراهية .. من هم؟ . كل
زملائي الأعزاء في سلك التدريس! أما الطلبة.. فلا التفوا حولي
جميعاً.. لعله كان السبب؟ نظن ذلك؟ ربما.. حيرنى الأمر طويلاً
وفكرت جدياً في ترك الجامعة لولاء نعم! هو زين العابدين...
وحده قد اخترق ستار العداء المسدل حولي.. وصار صديقى!
وتهدج صوته! صمت واتخذ سمناً يشي بأنه لن يواصل الحديث في
الأمر...

من خلفه جاءت الأم - مازالت شقرتها باقية رغم السن والشيب
وبقع النمش التي كست ظاهر يدها - تثمت بكلمات عن الحر
وجلس بجواره...

— نانسى طلبتك.. تقول أن المحمول كان مغلقا .

— لم أحمله معي أصلا أمى أنا...

— كلم نانسى!...

— أريد أن اعترف لك بأمر...

— كلم نانسى!

[نانسى هى الأمل.. الوحيدة التى تستطيع أن تقنعه بالزواج فهو
يحبها.. نعم يا أمى أحبها... ولكن..] لم يزد مرة عن الكلمة..
لكن!

اعتمد برأسه بين كفيه وبكى بحرقه... اعتادت هى على بكائه! هزت
رأسها.. واكتفت بلمس كتفه..

وهمست: ما بك؟

— أنا قاتل يا أمى!

دائرة منتصف الليل

ثار رفيق وانفجر به صائحا كنور يخور «نعم وحياة أهلك؟.. اسمع يا
يوسف يابن الشفقى رأسي يفتك بها صداد ملعون من صباحية
ربنا.. ومزاجي في الدرك الأسفل... يعني لا تقصني تخاريف
جنابك أى جريمة تلك التى رأيتها؟ انه السكر الذى تمتلك يا روح
الحاجة حازية... تهيزات عرضت لك!... وحتى لو كان ما تحكيه
حقيقيا. فما لك انت به؟ تريد أن تذهب للشرطة وتقول لهم انك

جرتهمما الحكاية طولا إلى لسان السلسلة ثم أحسا بالتمع
الكورييش مزدحم.. والرتوية بللت الخلد والملابس... والبحر يزأر
ولا أحد يصت فظنين السيارات والناس وصرخات الموسيقى
المصاحبة لأغانى منبعثة من مساحلات في كل مكان تجعل هدير
الامواج بعيدا متفيا...
— أين تسكن؟..

— لنا فيلا في لوران. تعالى معي.. سأعرفك بأمرى ونقضى السهرة
معاً.. في صوته تارجحت دبكة رجاء.. وفي عينيه نظرة خوف (مم
يخشى الرجل الرقيق؟...)

اعتذر لأن رغبة ملحة كانت تقوده إلى جليم..

أما هانى فقد عبر الطريق.. وقرر أن يسير بقية المسافة إلى البيت!
الشرفة الكبيرة مضاءة بالقنديل الأخضر القديم.. القنديل عمره من
عمر هانى... وحين مات

الأب آمن بأن روحه سكنت داخل الكريستال الأخضر.. فكان كلما
تساجر مع الرجل الجديد أو اخفقه صوت ضحكات الأم المتسرية من
حجرة النوم يخرج إلى الشرفة ويضئ القنديل ويتحدث مع الألب
حتى في ليالى الشتاء الباردة. «كانت نوة الكرم.. والأمطار تغسل
أرض الشرفة وتكوم هو على أريكة البامبو ملتفا ببطانية لم تحمه ولا
القنديل حماء حين غلبه النوم ولم تكتشف الأم ما حدث إلا في
الصباح! حمى يذكرها حتي الآن ويذكر خيالها.. مياه الأمطار
تندفق تحت قدميه (القنديل يتأرجح في سقف الحجرة ووجوه كثيرة
تظهر ثم تختفى...)

رأيت شاباً يجر إلى البحر ويفرقه أفراد العصاية؟ مبحنون أنت أم عن لك أن تتسلى على رفيق الجوىنى في يوم نحسه؟..»

— ليست عصاية يابن الجوىنى . انه الشاب ابن الرمادى ذو الأنف المعوج وتفاحة آدم رأيتة لحظة إطفاء شموع العيد وقالوا انه خطيب البنت.. كان معه مجموعة من الحراس لابسى الزى الخاص . وجروا زين بعد أن طاردوه.. وقتلوه إغراقاً فى البحر أم عيني وعيني الدكتور هانى الكردي..

استرخى رفيق فى جلسته واجماً كمن سقط على رأسه حجر . وراح يحملق فى صديقه القديم وهو يتمنى لو كان ما يقوله نوعاً من المراح وحين رأى عبسته ويريق الغضب فى عينه أحس بالمصيبة وخرج صوته بتحشج كمن يحتضر: .. أمك وأم دكتور هانى هذا أو أياً كان اسمه . ثم تناول قرصاً من أقراص الحموضة الفوارة ووضعه فى كوب ماء.. وجرعه دفعة واحدة..

— مصيبة أسود من ليلة كحل!..

أطلت رحاب عبر الصالة فناداها مستجيراً..

— تعالى لتسمى ابن الشفقى فى آخر اليوم غنائى!

أما لهذا المرض من نهاية؟. حتى الآن لازالت الحسرة تنحرك فى تلافيف أمعائك؟.. كلما رنت أو خطرت وحملت النسمة عطرها ينقلب حالك؟.. عيناها فى طرفنها تحوك بظل ابتسامة تجعد غمازتين على جانبي الفم تعيد فتح الكتاب القديم وطريقتهما فى صم شفتها السفلى إلى العليا حين تعتمد أن تخفى ابتسامة يا الله! (كأننا يا بدر لا رحناء ولا جينا..)

انتهى رفيق من تلخيص «وكسة» يوسف كما سماها . وراح يتراقص رغم صداحه...

— شوفي الخيبة يا أختى... شوفي الخيبة يا أختى...

— أى خيبة يا رفيق؟ . يوسف يفكر صح!..

— نعم يا روح سترك؟ انت أيضاً؟ أى صح فى هذا الحنون؟ نحن ما صدقنا أن يعضو عنه عبدالرحمن الرمادى ويطلب من رئيس مجلس ادارة الجريدة أسامى بالهاتف أن يعيد المحروس لعمله.. ويحىى حضرته اليوم ليقول أنه يريد ابلاغ الشرطة بجريمة قتل ارتكبها جاسر الرمادى وهو شاهد عليها؟..

بهذوء ملأ صدره مع إحساس بالخذر الوديع . غمغم بعد أن بسمل «ومن يكتم الشهادة فهو آثم قلبه»..

— أهلاً بحضرة صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الشفقى! قسماً بالله لو لم تلب إلى رشدك لقطعت صلتى بك إلى يوم الدين..

قالها وخرج لا يلقى علي شىء..! وبقيت رحاب..

بقيت رحاب ترنو عبر ناظرة إليه.. فى أفق الليل أمر تطارده وتريد استحضاره ليقطع حرج الصمت.. (هل تقطع السنوات خيوط الوصل؟ . وتبقى الذكريات وحدها ترقص علي الخافقة؟. ما كنا لصمت لحظة حتى فى لقاءات الرمال على شواطئ العرب الخالية ولطالما بنينا القصور ونحدين زحف أمواه المد دون أن يكف عن الكلام... والأنامل تبحث عن لحظات التلاصق... والشفاء تحطف لشمة الحد... وتعرقل الرمال جرى الهرب... تفوض السيقان وتنكفىء يتمرغ... أنذكر).

— أذكر عينيك شاخصتين مع أنفاسك المبهورة تحت ثقل صدري الجاثم.. وأنت تشيرين برموشك لندفة من سحاب صيفي يعبر «ما الذي تشبهه هذه السحابة في عينيك؟ أنا أراها قطرة رومي ترفع يدها لتخمش وجه من يماكسها!.. وأنت؟.. أجبتك بأول قبلة حقيقية فاجأتك.. لا زلت أذكرها كما لو كانت من دقائق... الطعم وملمس شفتيك.. تصليهما في البداية.. ثم الاستجابة.. فالتوتر فالانسحاب.. فالغضب..

صمت فأكملت مبتسمة: فالصفعة!

ران علي البيت في لحظة صمت مفاحي.. وابتردت نسمة نسكمت لحظة ثم نشطت وكان لوقع دقائق منتصف الليل في ساعة حجرة المعيشة فخامة في غير محلها.. فكر للحظة في أن يسألها: هل لو قبلها الآن ستصفحه كما فعلت في المرة الأولى؟ ولكنه أحس بسخف السؤال.. فقد قبلها عشرات المرات.. لم يحس الآن بأنه يريد أن يفعلها لأول مرة؟..

— أين طفلك؟

— أخذته أمي إلي ملاهي المعمورة!

... لحظة.. وصمت... وسؤال آخر.. «أين اختفى رفيق؟». سابحت عنه!

... أترأها وجدت في السؤال فرصة للهروب؟.. كلا.. فستعود! رحاب دائما تعود.. ليلة أن سافرت مع الآخر كتبت له رسالة.. وعدهت بأن يوما ستعود وستصل فيه ما انقطع.. ساعتها رأت «باطة» دموعه تتساقط علي الخطاب المفتوح، أخذته في حضنها ويدون أن

تعرف أو تسأل عن أسباب بكث معه «بدرى علي كسرة القلب يا يوسف! صام بعدها عن الأكل حتى هلمت عليه الحاجة جازية وأقسمت انها «عين» والعين تغلق الحجر يا ولاد.. «نعمل لك زار يا يوسف؟»
... هادت رحاب..

— تصور نام؟ (ينام رفيق وهو يعلم انك وأخته وحذكما في البيت؟... ليس لهذه الدرجة.. هو قد يخلو الجو ساعة للحديث حميم ولكن أكثر من هذا؟.. استحالة...)
— حدثيني عن حياتك في الغربة!

مرت سحابة على وجهها ودكنت نظرة في عينيها وهمست: لا تذكرني بما أكره...

بعد لحظة اغتنصت ابتسامة.. «ولكني تعلمت قراءة الكف هناك من جارة هندية... تريد أن أقرأ لك كفك؟»

هل كانت إشارة مرور خضراء؟ أم هو مجرد كسر لحرج الانتظار؟.. جف حلقه وتلججت أطرافه وأحس بالأعراض القديمة.. مد لها كفه تلمستها.. واحتوتها.. ارحمت نبضتان في شريانين متقابلين... أحس بأصابعها التحيلة أبرد من صقيع أطرافه..

— يدالك باردتان...

همست: أعلم!.. أضاف: إذا فقلبك دافئ!

لم تجب نكست رأسها وراحت تحملق في راحته المفردة

— خط الحياة عندك طويل.. ستعمر إلي ما بعد الثمانين.. أما خط..

ولم يسمع! كان قد أعطى أدنيه لصوتها القديم.. تغنى له ذات

صيف في حدائق قصر المنتزه.. «مش حاتنارل عك أبدا مهما يكون..» ولكنك فعلت يا رحاب

... خضعت! أعلم أن الزمن الذي تجبر فيه البت علي الزواج رغم ارادتها لم يعد حاضرا.. وأعلم أنك أنت بالذات لا يمكن قسرك علي شيء.. وأعلم أيضا أن رغبتك في التضحية من أجل أبيك بالزواج من الرجل الذي أنقذه ليست هي كل الحقيقة. وأذكر ليلة تشاجرت مع رفيق وانهمته بأنه لم يساعدك في الافلات من الزيجة الصفقة. وحين قسوت عليه في الهجوم بادرني بالجملة التي ألقيتها كل الاحجار: رحاب حسبتها بالعقل يا يوسف.

يا شفيق... ليست المسألة كلها إكراه كما تتصور! أفق لنفسك يا حبيبي!

.. أعلم هذا كله يا رحاب ولكني أغفر لك.. وسأظل أغفر لك.. غفراني بلا ضفاف.. فلا تعديه ضعفاً...

أفاق علي صوتها تناديه: لست ها!.. احتجاجها هو الذي حمل له الدعوة.. عياها تلتمعان بنفس الطريقة التي كانت تلهب حواسه - تذكرين «كايينة» عمتك بشاطئ عابدة.. وتلك الطهييرة في خريف أكتوبر؟..

أومأت أن نعم! وكيف تنسى؟ «الشاطئ قد اقفز.. وشمس واهنة تتأرجح خلف سحبات تبعثرها ريع خريفية يمتزج فيها دفء باق من صيف راحل بلسعة برد من تباشير الفصل القادم..! وكانت قد أسرت له في الهاتف بأنها تحابلت وسرقت مفتاح الكايينة و«الكاربيه»..! ارتدت يومها بنظلون جينز «استريتش» وأطلقت

حدائقها حرة.. وحين أمسك بحصلة ولها حول أصابعه أدارت له رأسها وبادرت بتقبيله.. لأول مرة تقبله هي وتقوده بشفتيها إلي عمق لحظة يتمدد فيها السحر لساعات! من مدياع قريب.. كان عبدالوهاب يصطحب بأعية قديمة كم نينا من حصاها أربعا.. واثنين فمحوها الأربعا.. وحدونا الشمس في مغربها.. ظللنا هناك حتى أطبق المساء..

آه يا رحاب.. أنذكرين كم مرة كتبنا إسمينا على الرمال وسفت عليها رياح المساء؟.. فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعي؟

هل تحدث وحده أما تحدثنا معا؟ اشتبكت أصابع اليدين لدرجة الألم.. وأعمضت عينيها وعقدت ما بين حاجبيها وارتسم على وجهها ألم مخضب ببقايا خجل لم تفقده أبدا.. ومن بين جفنين مطبقين وعمر أهدابها السوداء فرت دمعتان.. انحدرتا على خديها المضرجون والفترت شفتيها عن استغاثة خرساء.

كم افتقدتك يا يوسف! كم هاجتني ذكرياتي معك حتى امرضتني كم كنت هناك أسهر من أجل أن أدخل إليك وأناجيك مع إنتصاف الليل كما كنا نفعل في الاسكندرية...

«في الثانية عشرة تماما سيختلى كل منا بنفسه منعزلا عن كل من حوله ليفكر في الآخر.. بمدامسة التركيز يا حبيبتى سيمكثنا أن نتخاطر» أعلم يا يوسف انني اتصلت بك روحياً أكثر من مرة؟ واستطعت أن التقيك حتي بالجسد مرتين؟...

يعتصر يوسف صدرها اللاهث في أحضانه! ترجوه أن يترفق بعظامها! يمسك رأسها بين كفيه... تقفز فجأة بافرة.. «أنت

وحش». أصابعها تمسح شفتها الدامية

. يقف رفيق في مدخل الأرض عابسا..

— أبوك قد يحضر الليلة ليناقتل معك حياتك المحطمة ولا يجب أن يرى المحروس هنا . ولابد في حضرك.. وانت ياباشا... خالتي جازية في انتظارك!

ألقى بنفسه في مركبة الترام.. وأستد رأسه لزجاج النافذة . كان جبينه يتفصد بعرق بارد وشفاته مخدرتين.. واللبل قد أمعن بعد المتصف!

نهار مضع بالأشياء الطيبة

«رمانك طاب يا ليلي.. رمانك طاب حاجة هابلة» صحت أذنك قبل أن يفتح عينيه... الصفيير البعيد ليخت بحرى قريب.. وصوت الطبلية.. وتصفيق نسوة فرحات. وضحكات تقطعها صرخة وتدفع إليه راما. منكوشة الشعر محمرة العينين..

— هل قلت لكم يا عالم اننى أريد أن «اتجنز»...؟ دعونى لحالى ولا ومقام سيدى المرسى لآلقين بنفسى في المالح وأجيب لكم مصيبة نهزع ناطة داخله خلفها: قلقت منام أخوك يا مقصوفة الرقبة! ماله رجب الطحلاوى؟ جلدع ابن حلال وكسب ووحدانى.. لا أم ولا أخت... يعنى لن تكون لك حماة تنقص عيشتك!.. ثم ان الأمر قد تقرر ولا فائدة من عنادك حسن العريب قرأ الفاتحة مع الولد!

— الحفنى يا يوسف! تريد أن تتركنى لأذهب إلى الموت بقدمى؟

قالت له أمه الحاجة جازية ان أهل الدائرة بدأوا يلوكون مسيرة البنت وحكايتها مع «زكى» صبي الفران!.. وانها متفقة مع حسن في الرأى (البنت لابد من الاسراع بسترها..

. رمقته حسن العريب بظرة ساخرة.. (نعم يا أحلى؟.. وما هو العيب في أن أرحب بالجوع وأقرأ معه فاتحة؟)

.. انت حقانى يا حسن.. ولابد أن يكون لنا رأى! لسا قطيعك الذى ورثته عن الحاج خليل الشفقى وتقوده حيثما تريد! — تسمع أخيك يا سيد مرسى؟

سيد المرسى ليس محايداً فامرأته حلمية هي بنت عم رجب الطحلاوى! فضلاً عن ان رمانة قد تعدت الثامنة والعشرين وأصبحت علي شفا حفرة من البوار «والبنت يا يوسف يا خويا ليست عاقلة.. هي مطبورة كما نعرف جميعا.. وحسن العريب في مقام أبيها يعرف مصلحتها ولا يهاودها..»

ويضيف حسن انه استشار علي الاحسن وحصل علي موافقته بدوره..

— أخذت رأى الجميع إلا أنا يا حسن؟

— وماذا فيها يا ابن بطن أمى؟ . رأبك لن يخرج عن احتمالين.. توافق مثلنا نحن الثلاثة . أو ترفض... وإذا رفضت فنحن أغلبية.. ونحيا الديمقراطية!

ولولا أن رن جرس التليفون لحظتها لكان له مع المرسى شأن! . ناوله حسن السماعة

— يقول المتحدث أنه مدير تحرير الصحيفة!

بلهفة تلقى يوسف خبر حفظ التحقيق معه واعادته لعمله بعد انتهاء «الاجازة المفتوحة»

صقق حسن بيديه طرباً «أرأيت! قال العريس!»

قرر أن يعود إلى المنزل فيبعد حقيقته ويسافر في نفس اليوم إلى القاهرة . وسيعفيه اضطرابه من التورط في مشكلة «راما» . عليه فقط أن يطيب خاطرها ويستعملها حتي يعيد حس الغريب النظر في المسألة.. «وسيكون كله خيرا بإذن الله!»

.. اوعى تكون بتضحك على يا يوسف! «عيب يا راما. ومتى فعلتها؟»

.. وقبل أن يغلق حقيقته.. نادته باطة...

— الأستاذ هاني حضر وأدخلناه الصالون!

... نهار مش فايت!.. والأمر لابد أن يواجه بحزم فالسيد هاني سيأخذ على المطرح وتصبح حكايته حكاية...

وجده مختلفا تماما عن ليلة الأسس..! وجهه الشاحب معقودا علي تعبير عاس مصمم. وشفتاه الرقيقتان مزموستان بحدة حتي لقد عجب يوسف كيف يتكلم دون أن يفتحهما.. يده فقط ظلنا تشابكان الأصابع العشرة..

— هل تشاركني في قرار اتخذه؟..

— أي قرار يا دكتور؟

.. سادع وأسلم نفسي للشرطة يا سيد يوسف. وسأخيرهم بأننا

— أنا وأنت لا نستطيع كتمان الشهادة.. واننا رأينا مصرع زين العابدين ورأينا القنلة!

٦- الدوائر المغلقة

دائرة المكان الموحش

رغم رفته ورفاهة حسه وهشاشته البادية إلا انه لاح ساعتها كمنحوتة اغريقية لإله العناد الغاضب وبدا أيضا قابلا للانتهاك الى حد الضرب.. ادرك يوسف لحظتها ما يحنقه على الرجل . فيه ما يفريك بالقسوة ويستثير ما تخفيه من سادية.

- امهلني يا دكتور حتى أدرك مصالحي في القاهرة ثم اعود اليك.. خذها فرصة تعيد فيها التفكير.. فكر على هذا النحو المنطقي.. لقد شاهدنا شيئا. ربما كان شروعا في قتل .. وربما تم القتل بعد ذهابنا . حسن.. إذا فتحنا في أسوأ الفروض مجرد شاهدين.. اذا استدعينا للشهادة نشهد وسقول ما رأيناه على شاطئ البحر في ظلمة الليل.. افراد يطاردون شخصا وينزلونه البحر .. ربما كان مزاحا.. أو لم يكن.. فالرؤية غير قاطعة ولا تستطيع ان تقسم عليها.. حسن.. لن نتبرع باستنتاج يفسر ما رأيناه، ولن نتهم اشخاصا بعينهم.. حسن المهم أولا ان تستدعينا جهات التحقيق، اما التطوع بالشهادة فهو تصرف آخرق.

لم يجب هانى ولم يطرف بعينه، ظل ناظرا اليه والتماعات هازئة تبرى في عينيه بشكل جارح.

- لم تنظر لى هكذا؟ وبم صمتك؟ لعلك لم تقتنع بوجهة نظرى
- أمقتنع بها أنت؟

فاجأه السؤال فأحسقه . ما هذه السفسطة؟ كيف تكون وجهة نظرى
ولا اقتنع بها؟ . ومن تكون بسلامتك حتى اخافك فأناور معك
والشف حول معانى الكلمات؟ .. يخيلى الى أنك مهووس الى حد ما .
نعم . لست فى حالة طبيعية . ربما تأثرت بشدة لاحداث تلك
الليلة؟ .. انصحك بالاحلال الى الراحة والنوم طويلا . صالهاالات
الداكنة تحت عينيك تشير الى ارق بهكك .. وسأكتب لك اسم
اقراص منومة حديثة جربتها .. ستعطيك جرعة نوم طويلة تصحو منها
صافى الذهن قادرا على التفكير بشكل افضل .

لماذا بدت له ابتسامة هانى ساعتها جارحة مهينة؟ .. اى اتهام حملته؟
ومادا اقترف حتى يتهم؟ . الغضب يتصاعد ولا يهدأ مع كل خطوة
فى طريقه لغرفته ليحضر اسم الاقراص المنومة . وفى طريق العودة
الى ضيفه كان ضيقه به قد بلغ الذروة وقرر مع اخر خطوة ان يطرده ..
ولكن .. كانت الحجرة خالية .. وهانى غير موجود . جن جنونه ..
دون ان يعرف السبب . وراح وهو يقفز درجات السلم يعنف نفسه .
لقد كان يوشك ان يطرده فماذا احسقه فى انصرافه؟ اكان يريد ان
يستمتع بطرده؟ كلا .. اغرب ما فى الامر ان مشاعره تتغير من النقيض
الى النقيض تبعا لوجود هانى معه او غيابيه .. أمر يورث الحزن . فهذا
رجل لم يعرفه إلا منذ ساعات .. يومين تقريبا فكيف استطاع ان
يحتله بهذا الحضور الكثيف لدرجة ان يجعله يجرى بطول داير النحر
ثم شارع الترام امام حلقة الانفوشى حتى ينقطع نفسه وتخور ساقاه

دافع قهرى ملح سيطر عليه وتملكه ليجث عن هاتفه أو منزله ..
اسك بالدليل فى محل المانيفاتورة بشارع العطارين وراح يبحث فى
حرف الهاء ..

رفقه سيد المرسى من بين اجفانه الناعسة وهو يتمنم ' عمن تبحث يا
يوسف؟

واجاب حسن ساخرا: يبحث عن ابرة فى كومة قش ..

هاهو .. هانى محمود الكردي . هانى محمود الكرداوى اهو
كردي أم كرداوى؟ لا بأس .. سيحاول مع الاثنين ..

هتف بحسن يسأله قبل ان يخرج . أنساخر عدا من غير شر؟

وصل الى الفيلا واطمأن حين تعرف على سيارة هانى رابضة فى
ممر جانبي مجاور لباب حديقة صغيرة تحيط بمقدمة الفيلا فى شبه
قوس .. افرع الياسمين والللاب تتدلى على طنف الشرفة الكبيرة
حيث طهر جزء من سيدة المنزل الجالسة تقرأ بحوار السور .. قاده
المخادوم المسن الى صالون متسع فى صالة الدور الاول . وفى انتظار
هانى تجرع مرارة الندم .. ما الذى اثنى به؟ بأى علة سينعلل؟ لكن
الرجل الرقيق هش له بترحاب حار ولمعت عيناه بفرحة حقيقية دون
أن يظهر أى دهشة .

- جثت فى وقتك تماما لتصحبنى فى زيارة لأناس سوف تحبهم!

. وطوال الطريق رفض مراوغا ان يخبره عن هؤلاء الناس . بدا فقط
سعيدا كطفل يلعب لعبة الاستحمام يكاد يصفق طربا وهو يلوح
امارات الفضول فى عيني يوسف ويتسمع نبرة الإلحاح فى صوته
أما يوسف فقد تضاعف توتره . كان اصلا قد عانى مشاعر سلبية تجاه

منزل صاحبه رغم الاتساع والفضامة وكل مطاهر الثراء والذوق السليم . كان مكانا «موحشا» باردا.. يقبع في مساحة اللامبالاة التي تميز سكoon الأضرحة . قبلها كان يصيق باندفاعه غير المبرر وإلحاحه في البحث عن عوان هاني ورغسته المحرقة في العثور عليه.. ثم ضايقه أكثر ان يتجاهل الآخر ويتعامل معه كأن لم يكن بينهما هذا اللقاء القريب.. فقرر ان يعاقبه بالمثل ولا يسأله عن سبب اختفائه المفاجئ من حجرة الصالون بمزول دايبر البحر وبركن عينه راح يراقبه أثناء انهماكه في القيادة.. لماذا يبدو سعيدا متشيا الى هذا الحد؟ ربما كان يصحبه للتعرف على فتاته؟ ولم لا . رجل في مثل ملاحظته وثرانه وموقعه الاجتماعي كأستاذ بالجامعة لابد وأن يكون محط انظار الفتيات وموضوعا لأحلامهن..

عبرت السيارة منطقة الرمل عرضا واشرفت غبريال وباكوس . ومن شارع عريض مشعت المسالم بدا كسوق شعبي يزخر بالنشر والنداءات واصوات الاغاني السوقية المنبئة من عشرات المسجلات في محلات «العصير» والمقاهي الكثيرة وفوق عربات عرض البضائع العشوائية. من هذا الشارع انقطعت خيوط ارتباطه بالصفة الأخرى. هناك حول القليل الساردة والنسايات الموحشة هاني بالذات بدا مختلفا لدرجة اذهلت يوسف وجعلته يستعيد صورة الرواية الكلاسيكية عن دكتور جيكل ومستر هايد . دفع من الحبوية يسرى في اعطاف الرجل الذي لم يعد رقيقا بمجرد ان دلفت سيارته لقلب الحى الفقير . واتخذ وجهه سمنا مغايرا لما كان عليه قبلا بدرجة محيرة حتى لقد تساءل يوسف .. هل كان الوجه الاول قناعا أم ان ما

يراه الآن هو القناع؟ .. حتى نظرته الشاردة الحاملة لم تعد ولا عاد صوته رخيما هامسا.. برقت العينان بوميض الظهيرة المتوهجة.. وعلت نرة في الصوت تكاد تنم عن خشونة الثقة والاعتقاد.. فهل هو نفس الرجل؟

نصف دائرة الرجل الآخر

من الشارع العريض تدخل السيارة الى شارع اضيق واقل ازدحاما ويختار هاني مكانا مجاورا لورشة اصلاح سيارات يلقي على صاحبها السلام فيبادله حوارا وديا بشئ بالغة ومعرفة قديمة.. ويترك السيارة في حماه.

يصطحب يوسف متأبطا ذراعه، وقد تخلى عن نزقه وفرحته بشقاوة ومتمعة الاستحفاء . تحول بريق الفرش باللعة الى وميض يستعيد الحزن الداكن، كلمة لؤلؤ اسود بتدحرج في طوق مضى من حارة الى حارة في جو مفعم بروائح الفلاف المعجوبة بماء السلاطة البلدي، والطرشي وشواء السمك وبحار الزيت الذى يقلى الساذجبان والفلفل.. وبحوار مخبئ صغير للعيش البلدي.. منزل صغير من طابقين يختلف عن البيوت المحاورة في حدائنه ونظافة نسبية تعطيه حضورا خاصا اسرعت امرأة تضع فرشاً تباع عليه ام الخنول بإسراع الطريق امامهما للماب وبهجة من اعتاد رؤية هاني تهتف تفضلوا .. أهلا وسهلا.

صورة الفتى الخنطى بعينه النجلاوين وإبتسامته الساحرة تصدر حائط الصالون متشحة بشريط اسود . السواد يسربل احميع الاب والام والاخت والاخ الصي . ولم يكن سواد الأردية فقط.. فى

حدقات السهد التي قرحتها سخونة الدمع النارف ابدا لا يعف ولا ينصب له معين .. فى التعبير الملتوى بقسمات الوجوه يرسم عليها ذلك الحرر الغاضب الرافض للعزاءات الرخيصة والمشاركات المجانية فى الشفاه المزمومة المطبقة فى صيام غير معلن .. فى ترنيمة التعديد الموروثة تنقل بين صدور اربعة ولا يسميها الآخرون.

راح الامير . لابس حرير . خطمه الملاك .. زفه لقضاه، قال الطبيب .. جرح الحبيب .. يكويه بكاء .. والنوح دواه.

- روح زين تأتى كل مغرب وتقف فى شباك حجرته طير ابيض لا اسم له ولا صنف ولا جنس.

نطقها الاب، وامنت الام، وكست الاخت رأسها لكى لا يرى الرجلان دموعها والاخ الصبي يقول «أه يا حويا» ويعاود الاب الكلام

- روح زين تعاتبني يا دكتور هانى تقول لست ابى لو تركت دمي هذرا.

- لن نترك دم زين ليهدر يا عم امام. تعاهدنا انا والاسناذ يوسف الشفقى الا نترك قضية ابنتك حتى يلقى القنلة جزاءهم.

ترجف عضلة فى خد الرجل المكلم .. ويتطلع الى يوسف بانتماسة استطلاع متوسل:

- تعرف زين يا ولدى؟

رايت ليلة بكاملها ايها الرجل الطيب .. خطف بصرى كما فعل مع الجميع .. وكأنه تلك اليدوسا الاغريقية التى تحيل كل من يحرق على النظر اليها حجرا . عاشرته عمرا فى ساعات .. ورأيت العرافة تقرأ كفه وتبكيه قبل ان يحم قضاؤه . والمحت بالفصل الاخير من قصة

جبه النعسة . ثم شهدت صفحة كتابه الصغير تتمزق وتلقى لوحوش البحر الليلية وتتحول المرق الى زهور من يفسج تنبت فى مسام الجسد .. ييسما تتسلل داخلنا نحن الاحياء الحقنة فروع الاشواك المسنونة تنشب مخابها الابرية داخل ارواحنا وتمرق فى دماثنا كحرقومة علة لا شفاء منها لقد مرضنا بابك ايها الشيخ الحزين الام نقص -ربما للمرة الالف- قصة فتاها منذ ان خرج من رحمها والى ان ودعها مساء يوم الرحيل.

- امسك بكلتا يدي وقبلهما واغرورقت عيناه بالدموع، وقال لى ادهى لى يا أمى لأعود منصورا .. ضحكت وسألته .. أهى الحرب يا زين؟ سقطت دمعة على يدي أوحىنى قلبى فحضنته . حضته بكل ما فى ملح الام من قوة حتى اذنته فى دمي المتدفق فى صرعى ومازال صدرى يحن الى الآن وينزف لبن السرسوب.

دموع الام تسقط فى اصماقه كالجمرات .. يحن الى صدر الحاجة جارية ابذكر حقا شهور الرضاع والاشباع ام هو الحنين الى النكوص والتمترس داخل الرحم ؟ .. تترجم له جازية وهى تمسح على شعره وتهز وركها المثنى تحت رأسه هو هو . ننه نام وبديح لك جوزين حمام لما قالوا داولد. اتشد ضهرى واستند سألوا مين مينه كحلا .. قلت لهم يوسف الاحلى.

نواصل ام زين حديثها وقد احتضنت صبيها الاخر واب يعمغم بآيات أو ادعية لا تسمع وفى البلكونة التى يفتح عليها شباك الصالون العريض .. يقف هانى مع زينب الاخت منكسة الرأس تنصت ويتدفق هو فى حديث لا ينتهى.

- ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
لم يجبه وسأله عن نواياه.

لا مفر من الذهاب الى القاهرة أولا تستطيع ان تتقدم انت أولا
الى النيابة .. وبعدها سيرسلون في طلبى .. وسأحكى ما رأيت.
- شيء طيب ان تتخلى عن حذرك ومراوغاتك وتتصبر للنصف
الطيب داخلك..

- وما بال نصفى الآخر؟

- لكل منا نصفه الآخر يا صاحبي.. نصف يتعامل به مع الضرورة
واكل العيش ومراعاة الظروف والاضطرار الى المساومة واعضاء
الطرف..

- لن ادخل معك في جدل حول البديهييات ولكنى سأسألك مرة
اخرى.. ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
حاصر السؤال هانى.. فشرد طويلا وكأنه يستجمع تلك الاثنيات
التي تنوزعه..

. ماذا يريد هذا الصحافى ان يعرف؟ وهل يدرك مثله حقيقة زينب.
وقضية ريس؟ ألم ير ان لها نفس اللون الحنطى . سمرة الخمرة فى
النور المذاب . ولها نفس العيينتين الأسرتين.. المحمل طرفهما بالخور
القاتل الذى اباح دم أبى الطيب؟ ان من احب زين لا مفر له من ان
يعشق زينب!

- أتعرف ماذا يعنى ان تنقذه هذه الاسرة يا يوسف؟ اب يغسل الكلى
ثلاث مرات فى الاسبوع وام اقعدها التهاب المفاصل وشقيق فى
الاعدادية . يعنى ان المعاش الذى ستحصل عليه من الجامعة

والمرتب المضحك الذى تنقاضاه زينب من عملها بشركة الكهرباء.
لن يكفىا لنصف شهر.

- وأنت تريد ان تساعد؟

هؤلاء الناس يحملون كبرياءهم كالصليب . ربما لأهم لا يملكون
سواه.. ولن يقبلوا صدقة من غير ذى صفة . ولا مفر من أن تكون لى
هذه الصفة.. نعم وسأفعل... دائرة

المدار خط وهمى

التكييف البارد داخل القطار التوربينى يحمل من لحظة النزول الى
رصيف محطة باب الحديد محطة حقيقية فأن تلقى بنفسك فى فوهة
فرن بعد ساعتين من خدر البرودة وتعتصر لتزف كل مسامك
بالعرق.. فلا بد ان يساورك هذا النوع من الاكتئاب الذى يلقي بظل
كثيف على ليلتك وما يتبعها من ايام..

وكانت الفكرة التى تساوره فى كل مرة ان صيف القاهرة اللاهب قد
صار بعضا من سماتها حتى يصعب تصورها بدونها .. يبالغ عمرو
الكاشف زميل المهنة وصديقه الاقرب فى القاهرة فيؤكد ان حر هذه
المدينة له بعض من جمال خاص . وطعم مميز المذاق ربما كان سرا من
اسرارها المألوفة..

تحول الموصوع الى استقطاب متمصب بين حرب القاهرة وحزب
الاسكندرية دفع عمرو -المحب فى اعماقه للاسكندرية الى الجهر
بموقف مناقض تماما . نعم لا احبها . ولا اطيعها.. ولا احب ان
نظروا الى هذا الاستنكار وكأى علفت فى البخارى نواتها
تزعجنى فى الشتاء والرطوبة تدفعنى للجون صيفا . وقبل كل شيء

الفن ويبحثن عن فرصهن ويتطوع هو لحمايتهن من غوائل المدينة وبلاويها . ثم يعرض استعداداه لرد الاموال التي جمعها عمرو بعد خصم ما دفعه من عرايين للشركة التي ستقوم بتقيل المكان.

اي شركة يا عمرو؟ من تظننا يا صيرفي؟ مخنومين على القعا أو ان الباجيو الذي تعمق به المكان كل ليلة لحس عقولنا؟

يتدخل يوسف في حطة ما قبل الانسحابك اليدوي ليمصل بين الرجلين اللذين لن يلبثا بعد اقل من ساعة ان يتبادلا الضحكات والقششات ثم ينتقلان الى حجرة بالدور الاسفل مع باقى شلة البوكر ليلعبوا حتى شروق الشمس.

متهللا يواجهه عمرو بعد انفصاض الشجار سرك باتع يا يوسف يا شفقى لا حديث لكل من في الحوربال إلا عن الامر المباحث الذي اصدره فوزى الشماع ليس فقط بحفظ التحقيق معك واعادتك متعاملا بالقطعة بل تشبيكت محررا معنا ضمن الهيكل الوظيفي للمؤسسة

لم يستطع يوسف ان يصمد طويلا امام نظرة عمرو الكاشف المنفحصة المتسائلة فهمس له احتاج لشيورنك فلنمرد في حجرتي افضل

عودتي هذه المرة الى القاهرة ليست ككل مرة . وانا نفسى لم اعد يوسف الشفقى الذي كان قبل ايام قلائل . كأتى رحلت الى ارض عربية فقدت فيها زادى ومتاعى . ورجعت وقد ضاعت هويتى وداكرتى . أو كأتى حطوت على ارض رحوة سبحة فغصت فيها حتى عفى.

انا حرّ . وانتم همج شموليون متعصبون . رغم تشدقكم بالحرية وصراخكم ضد القهر.. تمارسونه فى علاقات الصداقة والزمانة والحب والزواج . أنتم منافقون ازدواحيون ولا جدوى منكم.. تصلح احوال البلد كثيرا اذا وضع امثالكم فى اكياس القمامة.

وللفندق الصمير الاكثر شبها بالنسيون شرفة تطل على الشارع المعجوز بمبانيه ذات الطرازين الايطالى والفرنسى، والشرفة تحولت الى ما يشبه الروف المعد كمشرب مفتوح . اصبح رغم ضيق مساحته ملتقى لشريحة متنوعة من الصحفيين والفنانين واخرين لا يخلو بعضهم من شبهة ومثل الجربون والاولديون . كان الباك دور . وان لم تتحقق له شهرة ريش القديم ويدعى عمرو الكاشف انه مؤسس «الباك دور» وصاحب الفصل فى تحوله الى منتدى وملتقى ومقهى.

واى شىء اخر .. ولا يحاول احد ان ينازعه هذا الزعم أو ينافسه على تصدر جلسات المساء والسهرة . وليتها كانت سخوة الطقس قد اثارت شجارات بين الكاشف «ومنعم الصيرفي» صاحب المكان بسبب تلكؤه فى تنفيذ المشروع الذى اقترحه عمرو «بتقيل» الروف وتكييفه خاصة وقد جمع له من رواد الملتقى مساهمات مالية لها شأنها.. ودخل يوسف فى لحظة احتدام الشجار.

عمرو بطبيعته العدوانية ولسانه السليط يتهم منعم بتبديد المبالغ التى جمعها له..

- اعرّف اناك صرقتها على المشبوهات اللاتى يلتصقن بك كل ليلة واللاتى يسئن لسمعة المكان.

ويثور الصيرفي مدافعا عن نطافة ذمته، وظهره النات اللاتى يعشق

- ماذا حدث يا أخيب خلق الله؟

- ليلة زين العابدين امام وهالة الرمادي

. السماء مظلمة بظلمة كثيفة خارج اطار النافذة ودخان السحائر
«الملقمة» يتماوج نحو مسار الضوء الكهربائي متباطئا متاثبا.. الهواء
راكد وحبيبات العرق تلمع بللورات ملحية تعكس شعيرات
صوتية بدت لعيني يوسف استحابة فظة لما تكسر في جفوه من
نعاس مؤجل. لم أتم الليلة الماضية تقريبا. واعتقد انني سأسقط في
بئر الهجوع بعد ان انتهى من رواية ما حدث كيف استطع ان اشطر
نفسى الى رجلين في نفس الزمن أحدهما يروي قصة ما حدث في
ليلة مارييا والاخر يراقبه ويفكر في اشياء اخرى لا صلة لها بالخرن
النيل الذي يحسه الاول؟.. فلتكف الآن عن التلاعب بنفسك فقد
شارفت القصة على نهايتها.

... انهمك عمرو الكاشف في لف «صاروخ» جديد..

- ما بقى من الصنف يكفى بالكاد لهذا الصاروخ. وستنقسمه.. الم
تحضر معك (ماتيريال) من الاسكندرية؟

- أوصيت صديق ليحلب لى من ناجر في جبل ناعسة ولكنه لم
يرد حتى سافرت!

شعر بغضب شديد من صاحبه فقد افسد الخو المأساوى الذى
نظمه له وكأنه ملحمة من ملاحم التراجيديا الاغريقية. وقد احاد
الاداء حتى اغرورقت عيابه بدموع حقيقية حين وصف له لقاء الامس
بالعم امام وباقي اسرة الفتى الخنطى..

- سمعت الحكاية ولم تعلق. أبدو ما حدث لى نادها الى هذا الحد

. مر عمر بحافة ورقة الكرة المشرشرة على لسانه بللها في احر
مراحل اعداد «الصاروخ» وسدد نحو يوسف نظرة مستقيمة ناعسة

تسم عن اهتمام متوجس

ما حدث لك هو فرصتك الكبرى لتنتقل الى احوال الفضاء
الصحفى.. اصغى السمع وخذ كلامى بأقصى جدية تستطيعها ما
يقلقك الآن هو خوفك من ان تشهد بما رأيت مع صاحبك استاذ
الحامعة الذى ذكرته. فيفضب عليك آل الرمادى وكما اعداك
عبدالرحمن الى عملك بالصحيفة يتوسط في التكتيل بك. أليس
كذلك؟.. نعم حسا.. العقل والمنطق يقول ان عليك المبادرة
بالهجوم. واستخدم ورقتك الرابعة ساوم الرمادى من جهة
ولوح في نفس الوقت لعمري الشماع بأن لديك قصة ستهز البلد من
ادبائها الى اقاصها. ولك في النهاية ان تحتار افضل العروض.. لا
تحملق في وجهى هكذا وكأنى اسمعتك كبرا عليك ان تدخل المدار
وتسبح مع الاحرام وإلا امتصت ثقب اسود وحولك الى ذرات من
عبار يجمي يسبح في السديم بلا عاية وحتى يصل تمدد الكون اقصى
مداه فينمحر وتقوم القيامة.

أنت مسطول ما تطله منى يحتاج الى لاعب سيرك يسير على
السلك المشدود بدون عصا التوازن وبدلا من ان احقق المجد المنشود
سأهوى وارطم بالارض وتدنق عنقى!
ناولوه عمرو الصاروخ بعد ان عب منه نفسا عميقا توهجت به
زهرة اللفافة وتساقطت منها شعرات مشتعلة تحمد سريعا.
- انا مسطول وانت مخلول! قسمة الحق..

ومع قهقهة «السُّطْل» انداحت افكار يوسف كتيار متسارع القى الكاشف بذرة راحت تتقلب وتتجوهر وتزايد سرعتها من حركتها الذاتية..

ماذا يساوى مبدأ اخلاقى فى مجتمع يتجه الى نسبة الاخلاق؟ . لذا قال فوزى الشماع ذات مرة فى اجتماع الديسك ان الصحفى الناجح ليس اكثر من بهاز للفرص! اذا فلهذه المهمة مبادئها الخاصة التى قد تختلف مع مبادئ اخرى لمهن محالفة . ثم ان شروط النجاة لمن يلج الغابة أولها ان يكون له مخلب وناب . ومن العبث ان تترك نفسك يا يوسف يا ابن الشفقى تحت ثقل من يفوقونك وزنا ليدعوك! فلتكن ذئبا وسط الذئاب.

. وفى الصباح امدته ليلته الطويلة بمزاج معتدل يميل الى التحدى وقبول المخاطر . وفى الطريق كان يفكر فى وسيلة تتيح له ان يقابل فوزى الشماع ليلقى بالقفاز الاول . ولكنه فوجئ حين وصل باستدعاء عاجل يأمره بالثول فى مكتب رئيس مجلس الادارة . ورئيس مجلس الادارة هو نفسه رئيس التحرير . سطوة مهولة لهذا الرجل الذى يعرفون جميعا مدى قربته من عصب النظام الحاكم . هو نفسه يتسم راضيا كلما ذكر امامه انه الصحفى المفضل . ولا يفتى انه قد يكون الكاتب الحقيقى للحظبة الهامة التى تلقى على الجماهير فى المناسبات السياسية الكبرى . دخل يوسف وبمجرد ان عبر الباب الفتح احس انه يعوض فى قلب عالم آخر . لم يسق له ان دخل هذا المكان ولم يحطر فى مسجلته ابدا ان يكون هناك فرد بالغا ما بلغ من الخطورة والاهمية مالكا لكل هذه الفحامة التى بددت سريعا مزاج الصباح.

رقه الرجل الاصلع - الصغير القائمة رغم خطورته سطرة من تحت جفنين مسدلين الى منتصف العينين، وظل لا يمكن اقتناصه لانسنامه مراوغة . لم يرد عليه التحية.. ولم يطلب منه الجلوس.. وامسك سيحاره الكويى الضخم ومرره تحت انفه الذى ارتجفت فتحته فى انششاء حصى كأنه يتشمم عطر امرأة يراقصها.. وتناول قاطع السيجار.. وقضم به الغلفة المسدودة ابتسم يوسف وقد شرد للحظات وعقد مقارنة بين قطع مقدمة السيجار وقطع غلفة الدكور اثناء الختان

قست نظرة الشماع حين ضبطه ببتسم . ولأمر يعرفه وحده كان لا بد ان يحنقه..

- لعلك تلقيت الدرس وثقلت عبرته.

- تعلمت ان انهج نهجك وانت المعلم العظيم..

. سر الرجل للنفاق الفاقع . وراح يشمل السيجار يعود ثقاب واحد ظل بين اصابعه حتى كاد ان يلهب اصابعه . والقاه حطبا اسود ملتويا . واجتذب نفسا اطلقه سريعا..

- كيف رضى عنك المهندس عبدالرحمن الرمادى؟

اشار له ليجلس قل ان يجيب وبدا واضحا انه يريد تفسيرا وافيا مفصلا.

- زرتة فى منزله بمارينا واعتذرت له..

- اذا تعترف بأن ما ذكرته فى المقال -المشكلة- كان خاطئا؟

برق له الحواب السديد كومصة الهام قبل ان يتزلق فى مهوى الردود التقليدية . وبدا من اتساع حدقة الشماع انه يتلهف على واحد منها

■ الفصل السابع

يتيح له ان يصدر حكمه النهائي على هذا الشاب «الألعبان» لكن اجابة يوسف فاجأته حقاً..

- كلا .. لم يكن ما ذكرته خاطئاً..! واعتذرت للمسادى بك 'التعقل والحكمة يفرضان الانحناء امام العاصفة..
- أنت منافق.

صمعه بها الشماع دوما حدة أو عصب كانت باردة كثلج يذو ولكنها ارجعته سريعاً الى فراج الصباح.

- بل انا نهار للفرص.. وهذه سمة الصحفي الناحح كما حددت بنفسك يا فوزى بك.

.. اتسعت ابتسامة الرجل .

- شاطر ! ولكن

انتظر برهة اتحلل لها قلب يوسف ! «استر يا رب» من لكن هذه اى مشكلة تورطت فيها بالاسكندرية؟

ورفع ورقة امام عينيه

استدعاه عاجل للمثول امام النيابة العامة فى الاسكندرية .

... فعلها هانى ولم ينتظر كما وعدك ! الامر لله !

٧- الخطوط الحمراء

خط الرجعة

«سيم ذهب وقيم أثبت يابن أبى؟ لم تتم يومين بالقاهرة.. هل رفتوك مرة أخرى؟ أظنك عملت «أبو على» وأطلت لسانك كالعادة على رؤسائك فشحنوك برجوع البريد على الإسكندرية».

— صبرك يا حسن يا غريب أفلح عن العادة الرذيلة التى نجعلك كلما رأيت وجهى تركبك العفارىت.. إنما أرحمنى شوقى لاجتماع طلعتك البهية ولحظتك الفاتك!

— تسخر منى يابن جازية؟

— جازية هى أمى وأملك يا حسن فكف عنى لسانك ولتعلم أننى مررت بالمحل قبل أن أنجى إلى البيت احتراماً لك.. فإذا لم يجد معك الاحترام صارمه وراء ظهرك ولتتعامل كالحواجات حقى . وحققك...

فاجأت عضنته حسن العريب فتسمر مكانه فاغراً فاه وشعب وجهه. بينما أدار له يوسف ظهره وعادر المكان اقترب سيد المرسى — ذلك الغامض الصموت الذى يندر أن يظهر ما بداخله . وكان يوسف كثيراً ما ينعتة بوجه «الوكر»... ولم يعرف أبداً معنى

لهذه الصفة إلا أن البوكر هو إحدى ألعاب «الكوتشسية» - اقترح من حسن الشاحب المصنوع:

- الولد راجع مرهق وقرآن يا حسن فلا تأبه لكلامه...

لم يحب حسن. فقط تحلى عن تحشبه وتحرك في بطة إلى بك القماش يتعامل مع رونة تقلب «البصاعة» من ساعة مضت! بينما يكمل سيد المرسى وهو يتجه لزبون آخر.

- يوسف يحبك ويحترمك يا غريب ولكنه فوجيء بك بدلا من أن ترحب به تأخذه على الحامي¹. ويوسف يلوم نفسه وهو يمشى في شارع العطارين تقوده ساقاه.. «حسن لم يخالف طبعه يابن الشفقى. ولم يقل غير ما يقوله كل مرة فلماذا انفجرت في وجهه بهذا الشكل؟». وما ذنبه هو فيما يصطحب في رأسك من أمواج الحيرة المتلاطمة تدور كالدوامة حول مثولك في الغد أمام النبأة العامة؟.. وحين ارتطم بحقيقة ما يحز به من تطورات ليلة مارينا كان يخطو داخل محل «على الأحسن»...

هل انكشف الحجاب عن عين المرحوم خليل الشفقى حين سماه «على الأحسن»؟ أم أنها النبوءة أم لعلها رمية من عبر رام؟ قالت العمة روصة حين سألتها في طفولته عن سبب التسمية - أسماء مجانية... أنها خليل في قعدة «حشيش». وعلى هذا. أحسن من سلامته؟

. اختلف الأمر تماما بعد سنوات طويلة.. حين تقدم على لحظة وحيدتها «أمارة» ومع الغرايد كانت تهتف «سماك الأحسن لأنك الأحسن يا حبيبي!»

... والآن ما الذي رماك يا يوسف..

عيننا على تضج بالسؤال ولكن لسانه لا يصرح به. فلم يكن يوسف قريبا منه في يوم ما لا أحد في بيت الشفقى ظل قريبا من على بعد انفصاله عن تحارة الأخوة الموروثة فقد أدانوه جميعا حين شق عصا الطاعة على حسن الغريب وطالب حقه في ميراث الأب. وتناجرت ناطه مع عمتها روصة واتهمتها مع ابنتها «أمارة» بتحريض على واللف في دماغه. وظل الجميع في البيت الكبير على بعد أقل من شعرة من الأخ الشارد حتى بعد أن مجع في تجارته الحديدية وأصبح حديث العطارين ومطاط الحشرات الدفينة في دابر البحر.

[جاليري عروس البحر - على الشفقى وشركاه] لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها يوسف متجرا شقيقه. ولكنها كانت المرة الأولى التي ينبهر فيها بما يراه.. حلال العامين اللذين لم يهوب فيهما نحو المحل. تفسير إلى شيء مهول.. «يخرب عقلك يا على كل هذه التعسف والقطع النادرة التي تنسب لأخضر الأصناف والأنواع.. ونباع أقل قطعة منها بمئات الجنيهات وقد يصل سعر أعلاها إلى عشرات الألوف؟ على الحداد. خلف مكتب على لافتة تقول: هذا من فضل ربي ومن مبخرة نمية عامرة بالبخور الهندي والحاوي والعود يتصاعد أريج يجعل من حفيف الهواء المكيف لحننا يدعو للإخلاص إلى النوم». - خطوة عزيزة يا أحلى يوسف في بر اسكندرية... هرتة رنة الصدق في عبارة الترحيب وكأنه يواجه على حين غرة

ذنبه القديم في حق علي... لئلا لم يكن في الصورة غير طهره
«البنسن» دو اللون البتروولى يلوح من فرجة الباب. منحنيًا على
أدراج الدولاب الخاص بالأب الراحل لم يلتفت ولم ير يوسف
غير لون البنسن... ومع ذلك حين صرخت الحاجة حازية صباح اليوم
التالى للوفاة بأن المائة ألف جنيه التى كان المرحوم يودعها دولايه قد
اختفت.. سارع يوسف باتهام على الأحسن كان ذلك هو يقينه
وقتها وبكل حدة اليقر أقسم على المصحف أمام رجال البيت ونسائه
أنه رأى على الأحسن رؤية مباشرة صريحة وهو يغتصب الأدراج
المغلقة.. وصحلت على هائلاً فى البداية ولكنه ما لبث أن صعد أمام
نظرات حسن وسيد وباطله وأمه نفسها. وراح بصرخ غاضباً.. ثم
ييكى مدافعاً. وكان بكاءه هو تمة الإدانة! «طفش» على من البيت
وظهر فى قرية العمه «روضه» التى لجأ إليها غاضباً بجتر مرارة القهر
والظلم.. حتى تقدمت راما بشهادة مناقضة لشهادة يوسف «صاحب
الجلباب البتروولى لم يكن على.. كان «مسعود البحيرى» المستخدم
فى وكالة القماش والذى كان مقرباً من الحاج خليل ويلزمه كظله
وفى مرضه الأخير كان ينام على الأرض فى وفاء الكلاب... رأته
وهم يقومون بغسل أبى فى الحمام يخرج من الغرفة متباطاً لفة كبيرة!
كانت راما وقتها طفلة. وتشككوا جميعاً فى روايتها ولكن سيد
المرسى اختلى بمسعود ونظر إليه طويلاً بعينه الناعستين تحت حفنين
نصف مطبقين وهمس يعاتيه.

— من أمك لا تحويه ولو كست خائناً.. فما بالك ومن أمك فى
دار الحق ينتظرك؟

وانهار البحيرى باكياً وحشاً على ركبته يقبل قدمى المرسى وأعاد
اللفافة التى تحوى السلع كاملاً. وحين طرده حسن الغريب اتجه
مباشرة إلى المالح ولفظ السحر جثته على شاطئ الأنفوشى بعد
ثلاثة أيام...

كان المرحوم يلبسه نفس ثيابه ويكسوه من نفس المقاطع.. حتى لون
القماش كان يوحده. وهناك حكاية سرية تتردد فى بعض الأرقه
والخوارى المتفرعة من دابر البحر تقول أن «مسعود» ليس إلا ابن
خليل فى الحرام من «زينات العرجاء» التى تركته فى حجرة وهربت
بعد ولادته بأيام.. وتولته الحاجة جارية التى عهدت به إلى نظيرة
نت الجدة «سوريا» من زوجها اللبى..

أصر حسن الغريب أن يذهبوا جميعاً بربطة المعلم ليصالحوا على
الأحسن ويعودوا به معرزا رافع الهامة إلى البيت. وظل يوسف
بعدها وطوال سنوات يهرب من ملاقة على أو النظر فى عينيه أو
حتى التواحد معه فى مكان واحد! وكان على كلما لقيه بهش له
ويناديه سازحاً «يا ظلمنى» لم يتحدثا فى الأمر أبداً. وحرصت
الأسئلة فى العميون وذبلت الإجابات على الألسنة. ويوسف
يعجب لنفسه كيف تقوده قدماء لعلى بالذات وقد كان ينوى
استشارة حسن؟ «أتراها ترضية يقدمها له معتذراً بعد ما يقرب من
العشرين عاماً؟

— نورتنا يا أبأ حجاج!

— عندك وقت لى يا على؟..

— وقتى كله تحت أمرك ولكن إذا كنت تريد أن نتكلم فى موضوع

راما فلا تنعب نفسك يا حضرة الصحفي راما لحأت إلى مستعبد
تستجير بي من عسف وتحكم حسن الغريب . ولن أحد لها
«تركت راما المنزل؟ إذا فهي لم تنق لحظة واحدة في وعدك لها
بالتدخل وإنشاء حسن عن إتمام الزيجة المكروهة! الله! زمار
البيت وقد اشتعل فيه الحريق..»
— لم أتى بخصوص راما ولم أعرف أنها تركت البيت إلا منك هذه
اللحظة..
— تريدني في أمر آخر؟..

قالها على بفرح حقيقى «فلتأمرنى يا أحلى أعرف أن حسن بور
التجارة ولم يعد معه ما يسد حاجات الجميع.. وأنا سداد... كم
يلزمك؟»

— لا تفسد اقترابى منك يا أحسن بعرض النقود والاستعراض على
خلق الله!

انكمش على معتذرا وأصاخ السمع
«ماذا أفعل يا على وأنت رحل السوق الناجح الذى يتناقل
الجميع أخبار شطارته وحكته؟ هل أختار الطولة بالانتصار
للحقيقة والعدل.. أم أختار التجاح والقوة باعتزال الرأى وانكار
الرؤية؟..»

يسار الخط السابق

واحدة محل الأحوة «الشمقى إخوان للماييماتورة» تسقط عليها
أشعة الشمس الغارة . لكن «التندة» العريضة تحول دون مهاجمتها

لأتواب القماش... يقف سيد المرسى بين حسن الذى أدار ظهره...
ويوسف الذى وقف على الرصيف أمام الباب
— ادخل يا يوسف.. لا تتحدث وأنت واقف على الرصيف!
— أنا فى طريق لموعد عاجل! أردت فقط أن أصالح حسن!
حكك على يابو على. لم يرد حسن (رغم طيبة قلبه كان رذيلًا فى
خصامه).

— عملت ما على ياسيد يا مرسى! بلغ أنا على حين يعتدل لك
بوجهه أن راما تركت البيت ولجأت لعلى الأحسن!

ولم ينظر يوسف ليرى انفجار القنبلة التى أنقاها! . هو لا يريد
الانغماس فى حرب الأسرة حين تشتعل بين حسن وعلى وتنفجر
معهما مخروقات الإحن القديمة الراسية فى أعماق النساء الراضات
على الأرامل القديمة وكراسى المطبخ أكداً من رماد الغيرة
واللوعة الكسيرة والأحلام المحبطة .. وأصداء المحاولات المتوارة،
يعرف يوسف أن الركود قد طال وأسدل أسجة العكسوت...
وصدنت أسلحة النزال وبن جميعا فى نوق يومى مكون للاشتغال
والنوهج ولو فى مسارب الحدودى المفقودة.. «بعد الجدة سوريا
ومحالفها القديم مع سلمتها هنيات رعم الشقاق القديم بين
عبدالبارى الشفق وشقيقه حمدان لم يشهد الحرملك أى تحالفات
أخرى. كانت هنا هدانات متناثرة واجتماعات صاخبة فى شتاءات
مختلفة.. نبدن فيها جميعا كأنهن سمن على عسل كذلك
الصباح المشمس الذى تلا آخر أيام نوة «الغطاس» ونسلق فيه
يوسف ابن السبعة عشر عاما السلم «النقالى ليطل على سطح

ترددات أثرية ويتجمع فى ذبذبات أخرى ليكون صوتاً حاضراً فى
«المكان» . أعنية تخرج بالخان قديمة لما نزل تسجد... وتلاشى كل
ما ينبو عن بقطة فجر هرم كادت تمحوه الحداثا!
تكاد عظام يدها تنهرس فى قبضته وهو يهمس عدد صوفى؟
— أما زالت هنا؟ ..

خط النسخ

لم تبح! رغم سوات عمرها التى تجاوزت الثمانين. . نذير ذلك
الركن الخاص تحت الماكينة القديمة فى شارع «أنوس» محافظة قدر
ما تستطيع على السمة الحميمة والطابع «الأجريكى» بنفس
الشعارات والعلامات التى وضعها حدها «أندرياس» وحافظ
عليها الأب «ناناشى» إلى أن فردات صيف مع مجدة الحلبيزية فى
الخدمة الطبية لحيش جلالة الملك خلال الحرب العالمية الثانية.
واختفى إلى الأبد..

تحفظ صوفى سجل الدقائق والساعات وأحداث حمسين عاماً
أدارت فيها الـ «أفروبيتى».. وتحفظ ذاكرتها أيضاً الوجوه وقصص
العشاق..

بنفس البسمة التى لقيتهما بها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً..
وطريقتها الخاصة فى الترحيب..

— يوسف.. وحاب.. فرحانة برؤيتكم!

وتنذير لهما نفس الاسطوانة العتيقة «جبنى بركة. جبنى بصدق»!
ويقول يوسف لرحاب إذ هما فى الركن المحاور للنافذة المعرشة
بقروح اللبلاب...

البيت المجاور يريد أن يستدعى باطه لأمر عاجل .. وراهن وقد
احتمعن . مجموعة من سوة يسوت الشفقى المتجاورة يعرض
أنفسهن للشمس حاسرات حلايبهن حتى الوسط وقد اهتمكن فى
إزالة الشعر بعجانن «الحلاوة» وهن يسمرن بأحاديث تتحللها
صحكات تتواءم مع الأسرار (المعلنة) . رفعت أم شوقى رأسها
وحذقت به متسائلة التفتن جميعاً حركات وتقاربن يردن الاستار
لكن أم شوقى — تلك المرأة البضة التى سكنت أحلام مراهقته
الجامحة. ما لشت أن طمانتهن هاتفة — لا تحضن . إنه يوسف!
.. كم كرهها بعدها! «وماذا كنت تتوقع؟ أن يقطعن أيديهن من
خلاف ويتذهلن فى عشق الملك الكريم؟»...

أفاق على نظرة الدهشة الساحرة يحدثه بها الرجل الواقف فى
الترام قرب مقعده . ضبط نفسه بضحك بلا صوت .. وقد داعته
ذكرى ذلك الصباح الفاضح. ونهض ليترك الترام قبل محطته
الموعودة فى «جليم» . مثلما كان يفعل قديماً.. حين كانا يتواعدان
على نفس المحطة حتى يأما مفاجآت أهل بيت الجوينى.. وفور
نزوله من عربة الترام تسمر مكانه وقد توهجت كل الموحودات
حوله.. كانت رحاب تنتظره.

— لا أصدق الصدفة!

— ليست صدفة سمعت رفيق يرد على مكالمتك.. وحلمت بأنك
ستهبط من الترام فى «محطتنا» القديمة..

تفتت أحجار السنوات الثقال فى لحظات . ينصهر الزمن ويتحول
من الصلابة إلى السيولة إلى الغازية.. يصبح نسيماً. يتبدد فى

— كائى لم أفارقك كل هاتيك الستين!...

— كائى لم أرك إلا الأمس... وأحببتك بالأمس!

— لكنى أعشقتك اليوم... وأريدك الآن..

. نكست رأسها . «أستطيع الإنسان أن يسبخ ما جرى بما هو
حدث؟»

الأمل فى السبان يبدو تعلقا بالمحال. فمازالت النيران التي
اشتعلت فى دماثة يوم زفت إلى «الآخر» تهش كل وريد وتحرق
كل شريان متى تذكرها . «كيف ينسى أنها أعطت نفسها لغيره؟»
— لم أعط نفسى... أعطيت فقط جسدا لا يزيد عن رداء يمكن أن
يغتسل ويتطهر!

— حديث الهراء بعينه! فى هذا الحسد مسام أنبجس منها عرق
الاستمتاع فوشحها... ومسارات لمستها أصابعه فدنستها..
— لقد كنت زوجته!

ضرب المائدة الخشبية بقبضة يده «لم تكونى إلا زوجتى أنا» بشرعة
الوعد والعهد والقلب... وبنفس الشرعة أنت خائنة!
— وأنت مجنون!...

— لا فائدة! لن يسبخ اليوم أمسا فما يحدث هو العكس.. الأسس
هو الناسخ الذى يسيطر ويسمم كل مناهل النبع! لكن صوى
جاءت وجلست بينهما... أمسكت بأيديهما

— تذكر! الحب فقط... هو وحده السيد الناسخ!...

غبت لهما رقصت. فتاة فى الثمانين . لم تستطع ثمانيتها أن
تنسيتها من أحبت . «لا أحد يعرفه . ولم تتحدث عنه لإسان

ويردد بعض القريبين منها أنه معشوق صنعه خيالها...»

... سقطت دمعان من عيني وحاب على كفيه...

— ألن تغفر لى أبدا؟...

ماذا يقول لها وقد ادباحت به جنون المحال إلى شواطئ سوداء
مقفرة؟ يقول لها إنه طلب المغفرة هو نفسه استمرارا فى مقارفة
الذنب؟ . كان جبينه يلسع حارا.. وأصابعه ترتعد لاتقوى على
الامساك بشيء.. احتوتها هى بين كفيها. . ومالت تلثمها لا تما
بالدموع المنساقطة مال رأسه ولا مس جبينه جبينها
وصمما . وكنت دموعها . وجمعت أصابعه فى كفيها . وهمس
بتمرد على صممت لا يريده...

— رحاب... أنا فى ورطة!

— الفنى الذى قتل؟...

— أمثل غدا أمام النيابة لأدلى بشهادتى!

— كرر عليها ما قاله منذ ساعات لعلنى الأحسن:

— ماذا أفعل يارحاب . وأنت أقرب من يهيمه أمرى . وأبعد من
أعرف عن الهوى والغرض؟

هل اختار البطولة بالانتصار للحقيقة والعدل. أم اختار الجحاح
والقوة باعتزال الرأى وانكار الرؤية؟

. والشمس تهرب ملقية لهيها بعيدا . ورصيف «الكوربش»
المتمتع عند «باسترووس» دى الشراع الخرسانى المطل فى فحاجة
جارحة على المتوسط.. كانت الخطوات تسترجع حولات مماثلة فى
الأمسيات البعيدة..

ماذا يمكنها أن تقول له وقد سمعت الحدال الدائر بين أبيها وأحباها عن الخنوع الذي يمكن أن يدمر يوسف الشفقي لو «قل عقله» وورط آل الرمادي في قضية «معبد الجامعة». الاسم الذي اختارته صفحة الجواثج لجريمة «ماريا»...

.. هل يمكن أن يتفق رأي على الأحسن مع رأي رحاب إلى حد التناقض؟ أدهشه السؤال وإحسانته التي استقرت في صدره كالغصنة المائلة لا تتزحزح.

الحقيقة نسبية والعدل ظاهري .. والبطولة هي الوجه الآخر للحماقة... والعصر هو مرتع النجاح والقوة .

وحين أطبق الفسق أوصل صاحبه إلى بيت حلیم . كان رفيق في الشرفه لوح له ليصعد فأشار له رفضا وأدبر منصرفا يتصيد سيارة ناكسي توصله إلى «لوران».. وبأدبه سائق عجوز مستهجا - أنت شاب . أمشها يا أخى!.. وكان هذا مقدرًا ليلحق به رفيق - لماذا لم تصعد يابوسف؟

- دعنى الليلة يارفيق فى ما يكفينى ويفيض!
- فالح فقط فى مواعدة أختي المتروجة؟ اسمع يا بن الشفقي ببسا صداقة وعيش وملح وسنوات طويلة فلا تفسدها..

توقف يواجهه غير عابىء بازدهام الشارع...

- من الذى أفسد سنوات الآخر يا بن الجويني؟ أنت وأمك وأبوك ثلاثكم غصبتم رحاب دوني واستلبتم مني حلم البكور . وإدا أردتها اليوم فلن يحول مخلوق بيني وبينها..
فاجأت لهجته المتحدية صاحبه فوجم يحملق فيه دهشا مأخوذا.

- ما الذى أغضبك فى قوله حق؟ .. أنرضى لأحتك باطه أن..
- لا تعقد مقارنة غير حائرة وغير صحيحة. باطه لم تغصب من رحل كانت تريده..
وأدار له ظهره وأمن فى سيره لا يلتفت نحوه . حتى حين سمعه يسبه ساحتا

خطوط متقاطعة

لم صايقه أن يشير رفيق إلى حكاية «باطه»؟ هو يعلم جيدا أن باطه هي أمه أكثر من الحاجة جازية . بل هي أم كل الأخوة المتحدرين من صلب حليل عبدالبارى الشفقي غادة دابر البحر فى شبابها.. تلك التى سقت رجال الربع وحيرة الجيرة من مرافتهم مرا وسهدا . هو لا يعي من الأمر غير ما يرسب فى ذاكرة العلامة الذى كان يغادر عتبات الطفولة لتفجؤه ارتباطات المراهقة. وأصيل ذلك اليوم الخريفى حين تربت «أبله باطه» على سنجة عسكرة. ونفندرت للقاء خطيها «سمير الطرفاوى» رينة شباب الدابر ودابر الدابر... الفتى ذو الوجه.. الـ
نسمر مكانه... الفتى ذو الوجه الخنطى!!

نفس السحنة يابوسف ونفس العينين ونفس الابتسامة. سمير الطرفاوى هو رين العابدين إمام!! وكلاهما استشهد عشقا فى عصر تباع صواته فى سوق النحاسة!

ذاك الأصيل.. كان اللقاء الأخير.. بين عطيات وسمير..! صافحت الشمس العاربة على حرف المتوسط وجهه حين خرج من باب البيت.. ووجد جابر «القرعة» فى انتظاره شاهرا «السنجة» ولم

كأن قدرك أن تشهد الهيايات..»

فى الشرفة العلوية لقبلا لورآن أطل قمر مشوه يحسو نحو
المحاق - ورائحة الياسمين تتماوج مع سمات سبتيمبرية أفلتت من
شرد النهار الحار .. والقنديل الأخضر يسقط غلالته على وجه هانى
الكرداوى الذى احتضن صدره بدراعيه وعلت عسبة ما بين حاجبيه
هينان مرهقتان احاطتهما حالات السهد الملعوب.

— ما الذى أتى بك إذا وقد استشرت وأفتوك؟!

— أريد أن أحرف ما قلته فى شهادتك أمام النبأ!

— شهدت بما رأيت!

— الظلمة كانت سابغة. القمر مخسوف والحر أسود..

والأضواء بعيدة.. فكيف رأيت؟

. رقع هانى بنظرة ساخرة

— كما رأيت أنت يا حضرة الصحفي خادم الحقيقة!

.. نهض إلى السور. وارتكز على مرفقيه كأنه لا يريد أن يرى وجه

صاحبه..

— لا أستطيع بادكتور أن أحزم بما رأيت. لا أستطيع أن أقسم على

شهادة أذكر فيها أنني رأيت ابن الرمادى ورجاله وتأكدت من

وحوهم وهم يطاردون زين العابدين ويطبقون عليه وأنه هو

بعينه من سخلوه على الرمال وجروه إلى البحر وأحاطوه بزبانية

آخرين يركبون اللنشآت التى دارت حوله تصنع تلك الدوامات

التي أغرقته بعد أن ضربوه على رأسه ليفقدوه وعيه..!

واستدار إليه وكأنه يعرض برهانه الساطع...

بذ أكثر من ابتسامة دمة مبتورة حين احترق النصل صدره لم
يصرح ولم يصدر عنه مجرد آهة تقياً دما ثم انطرح صريعا وبجواره
وقف «القرعة» يطمئن نفسه ويضحك. ثم يقمى بجوار حسد
سمير... ومن دمه هو يرسم خطوطا على جبهة قتيله.. ومن دم
سمير يرسم خطوطا على جبهته هو. ويصرخ مخاطبا الجمع الذى
تخلق حوله من أهل الدابر:

— عرضت عليه أن اقتسم ثروتى معه. قلت له باسمير خذ عمارة
السياسة.. وأرض العاصرية وسيارنى الحديدية ونصف مالى فى
البنك. لحلال عليك. اتركها لى بت الشفقى لن تكون لغبرى!
ولكنه ركب رأسه ولم يصدقنى! لم يصدقنى بأعالم.. لم يصدقنى
بأهوه!

. بذكر يوسف أن «باطه» لم تصرخ ولم يغم عليها ولم تدرى
دمة. فقط تحشت كالموتى واصفر وجهها وعمغمت سياط قلب
مخلوع: يا ضنا أمك يا حبيبى!

ويغشى الذاكرة ما يغشاها فلا يذكر بعد ذلك المغيب أن باطه عرفت
رجلا أو طمعت فى رواج. بذكر فقط جملة وجيدة رددتها على
مسامع العمة روضة..

— زوى الأول والأخير تحمم بدمه قبل العرس فصرت حراما على
سواه.

حرمت باطه نفسها.. وحرمها أهل الدابر.. وانقطعت السيرة!
.. تعلم الآن يابن الشفقى ما الذى جذبك إلى الفنى احطى ليلة
القمر المخسوف.. وتعلم سر العينين النجلاوين والبسمة الأسرة

٨- خطوط الطول

— فى صميرى أعرف أنهم هم . ولكنى لا أستطيع الشهادة بأنى «رايتهم»!.. أتدرك الفارق يادكتور؟.. راحة الضمير تشترط أن تتحد الرؤية مع المعرفة!

«.. عينا الرجل الرقيق تلمعان بوميض حاد كأنه انعكاس ضوء مبهر على حافة سكين تم شحذه فى الحال ووجنتاه تنبضان فى رعدة هى تعبيره الوحيد عن العضب. وبصوت هامس يترامى إلى الأذن وكأنه يصدر من غور بثر سحيقة.. أصدر أمراً صارماً..

— لا تتحدث عن الضمير! الكلمة تنغمس فى الدنس على لسانك! أصابته الكلمة فى صدره! أصابت العصا رأس زين العابدين إمام أصاب نصل السجده صدر سمير الطرفاوى.. الدم أركى من الكرامة المهانة

كان إصبع هانى السبابة يكاد يلمس طرف أنفه..

— لقد أخبرتهم أنك كنت معى.. وأنا رأينا معا ابن الرمادى يقود القنطرة . وتستطيع أن تردد أمامهم سفستك وهراءاتك المتخاذلة لتركع أمام عبدالرحمن الرمادى وتلمق الغبار من فوق خذانه افعل ما تريد وقل ماشئت وفقاً لضميرك «البقى» المعروض للبيع فقط... غب عن ناظرى.. ولا تدعنى أراك فى هذا البسمت مرة أخرى.

ضحى يوم فى منتصف الخريف

لم يتحسر الظل كثيرا عن حذار المبني المقابل المائل عن بعد من خلال النافذة العريضة المفتوحة حلف مكتب المحقق (رئيس بيابة أو محرد وكيل للنائب العام - لم يتبه جيدا خبره قبل دخوله المحبرة - رآه شابا نحيلاً فى منتصف العقد الثالث ملامح نثى بأصل صعيدى لا شك فيه) كان يجيب على الاسئلة المعتادة فى مقدمة المحصر وهو يتشاغل عن نوتره بمراقبة حركة الشمس فى الضحى من خلال حركة المساحة المظلمة على واجهات تقابل الشرق..

- صحفى...؟ فى أى جريدة؟..

بدت فى عيسى المحقق لمعة اهتمام غير مهنية حين ذكر له اسم الصحيفة.

وأشار إلى سكرتير البيابة بأن يتوقف لحظات عن التدوين الرسمى

- صحيفتكم هى الوحيدة التى لم تنشر حتى سطر واحد عن حادثة مارينا؟

». ناقش الأمر خلال رحلته الأخيرة إلى القاهرة مع من لقيهم من زملائه وعلم من تلميحات متتارة ان الرجل «الكبير» يراعى خاطر الرمادى. بينما وبخه مدير التحرير حين سأل (وما أهمية حادث غرق عادى يتكرر

كل يوم طوال فترة الصيف؟ دماغا يابوسف. اذا كان لديك تفاصيل تستثير حاسنك الصحفية اكتبها وهاتها)..
- هذا ما أنوى ان أفعله!..

رمقه رجل النياة بنظرة استفهام.. (نعم؟)..
- اجهر حاليا تحقيقا صحفيا عن «ضحية عيد الميلاد» هكذا اسمى موضوعى!..
- حدثنى عنه قليلا!..
- لم اكتبه بعد!..

- لا أقصد الموضوع.. حدثنى هن «الضحية»!
فى المحضر الرسمى قال انه رآه لأول مرة فى فيلا الرمادى مساء يوم الاحتفال. وحكى وقائع الليلة حتى المطاردة التى بدأت من سلم الفيلا إلى البهو فساحة الانتظار الخلفية.
- وبعدها؟..

- دعانى الدكتور هانى لاصاحه فى بحثه عن زين العابدين. وحين وصنا لشاطئ البحر خارج القرية رأينا مجموعة تطارد شخصا عرفت بداخلى انه نفس الفتى ولكنى لم أر ملامح أحد. كان الخسوف قد حجب سنا القمر واصبح الظلام سابغا..

- وفى ساحة الانتظار.. هل غيرت احدا من المطارين؟
- فى الساحة كانت هناك مصابيح تضىء المكان. وكان الرجال الذين يطاردون الفتى يرتدون الزى الخاص بحراس الأمن فى الفيلا!
- يقول الدكتور هانى انكما شاهدتما الجريمة بوضوح وتأكدتما من شخصية القاتل ومن اشخاص قاتليه..

- كما ذكرت بداخلى اعرف انهم هم! اما رؤية العين فلا اقسم عليها.
- وهل هذا ما تنوى كتابته فى تحقيقك الصحفى؟. تعرف بداخلك فقط؟..

رنة السحرية فى صوت المحقق اخنفته واثارت فى نفسه مشاعر عداية حاول ان يكتبها ولكنه لم يستطع فقرر للمحقق انه أدلى بكل ما عنده ولايوجد ما يضيفه وبدأ ياردا غير متعاون فى اسئلة اخرى حاول الرجل بها ان يتحافى. مشيرا إلى علاقة حاسر الرمادى بهاله. ودحول زين على الخلف..

- سنسمى تحقيقك الصحفى ضحية عيد الميلاد أليس كذلك؟ والضحية طبعاً هو زين؟. والمستفيد من موته هو حاسر. العاشق الممحور. ورجال أبوه وحده هم الاداة التى نفذت حكم الاعدام. إنها سلسلة ألا ترى ذلك؟.. أليس هذا ما تتضمنه موضوعك الصحفى؟ اتعرف يا استاذ يوسف ان مثل هذه الجريمة تصنف فى القانون الفرنسى بأنها «جريمة عاطفية» ويكون الحكم فيها على المدان حكما محففا للعامة؟
مالى أنا وقانونك الفرنسى؟ وما الذى تريد ان تستدرجنى إليه؟. انطفى اخشى الرمادى انت ايضا؟ نعم. هانى يظن هذا. وعمره هيك فى القاهرة! هل يبدو على وجهى انى من هذا النمط المساوم؟ حسنا سترون جميعا..

- تلونا عليه اقواله ووقع..
لم تبرق عيننا هذا التحيف خلف نظارته يسرق انتصار محطوف؟.
فليرقص اذا شاء. اننا لم احالف ضميرى بكلمة! شهدت عما رأيت وقلت ما اعرفه. لم اخلط هذا بذلك.. الرؤية شىء والمعرفة شىء آخر..

كانت رحاب تنظره جالسة حلف مقود سيارة انيقة لم يرها من قبل.
- سيارتي . شحنتها قبل عودتي .. ووصلت منذ أيام . وأخرجها رفيق
بالألمس فقط.

- هل اشتراها لك ذلك الذى بعته من اجله؟..

مغضب توهج فى عيها اصابته .. لم يدفع من ثمنها فلسا ابى ارسل
ثمنها كهدية فى عيد ميلادى الماضى بعد ان علم انه لا يريد ان يشتري لى
حتى الثياب بعد ان تأكد من اصرارى على تركه¹¹ هل ستركب الآن ؟
- هل تذهبن معى إلى غريال؟..

عيها الفتى الخطي لا تكفان عن الوميض¹ كأن من خلال الصورة
المحاطة بشريط الحداد يتنصر على موته ويفرض وجوده الخي على كل من
ينظر إليه . وهكذا تسمرت رحاب ولم السؤال الذى وجهه «هاى»
ليوسف: مالى اتى بك إلى هنا؟ هل أرسلت الرمادى لتساوم اسرة
القتيل؟ كم يعرض من اجل الدية/

ويستدير إلى الرجل المهلم كم تريد ثمننا لدم زين ياعم امام؟.
جذبه يوسف بحشونة إلى السطح للمعاور .. وامسك به من ياقة سترته
يهزه وكأنه يريد ان يطرحه ارضا «كف عن وسواسك الغيى» لا
احد يستطيع ان يشتري أو يحترق صميرى ولقد ادليت اليوم بأقوالى
أمام النيانة اذهب وراحعها ان سمحوا لك ولكن لاتواصل
عدواك تحاها¹ انا لا اصدق ما تنديه من حزن ولا اصدق تسنحك
المثالى من اجل العدل انت مدع يا حضرة الدكتور¹ بل انت ارماسى
لا أكثر!

لم يحاول هاى أن يقاوم او يخلص نفسه من غضبة يوسف لكن عاه

طلنا ثابتين على نظرة اختراق صارمه تكرر مع السؤال: ما الذى اتى بك
إلى هنا؟..

القتله وهو يستدير ليووجه شمس الروال . «أردت ان اراك . ويقينى ان
تكون هنا.»

خط الزوال

انحدرت أشعة الشمس عند حافة شاك «الصالة» لتسقط محروطا من
ضوئها على الحداد الذى يحمل الصورة وكانت «زينب» تبكى والام
نقص حكايا زين على رحاب بأيقاع «العديد» . وهى تخط على صدرها
بدقات رتبته مصاحبه.. والاب يضع رأسه بين كفيه وفى الخارج على
السطح يهمس هاى مؤكدا «سأتزوجها! فقط بعد شهور الحداد وتقديم
القتلة إلى القصاص!

رحاب تعصر مشاعرها قبضة بأصابع حجرية تلمس قلبها فتوحه تحس
هجة نارغة فى الفرار ومبارحة بيت الاحزان هذا. لكن عيى الفتى فى
الصورة تسمرانها فى المكان . تخفق فى حلقها كلمات الاستماعة.
يا يوسف . خذنى بعيدا عن هنا عمرى ما حضرت معرى ولا أحاط بى
السواد سمعت مرة صراخا فى عمارة محاورة واصوات ساء يولول
وصوت شيخ يقرأ القرآن فى صوان قريب من عمارتها ولكنى لم
انحمل فأخذتنى امى إلى شقة المعمورة ما الذى اعراك باحضارى إلى
هنا؟»

فى طريق العودة اصصر هاى ان يقلعهما فى سيارته . ونحرد حروجهم
من «غريال» عاد إلى اهاف «الرحل الرقيق» وكانت رحاب الحالسة فى
المعد الخلمى تشرد ناظرة إلى وجهه فى مرآة السائق.

برى اصلا وجه «الافندى» ولاتنوى ان تدخل معه فى شجار أو مجرد حوار وكـم تـمنى لو تم كل شىء يهنوء ويدون صراعات أو وجع دماغ..

لم تمد يدها لتصافحه - فمئذ ما حدث تلك الليلة - وحسدها بقشعر لمجرد مرور ظله بجوارها.. ولم تجلس رغم نظرة الـاب الغاضبة ولهجته الأمرة..

- بالراحة ويدون وجع قلب.. سأبريك وارء لك هداياك.

- لم احضر لا طلق لقد متحتك الاجارة التى تريخ اعصانك.. وستعودين معى..

هل كانت نضحك وتصرخ فى آن واحد اسامهم أم تراها فعلت فى داخلها؟.. كل ما تعلمه ان الطنين اصم اذنيها.. احسب فقط بجملة واحدة تردد على لسانها..

- تريد ان تبينى لمن هذه المرة ايها القواد؟..

مياه الخليج ساكنه.. راكدة.. والرائحة عطنة لكن النكييف المركزى بالمشمى الفحم يحول المنظر من النافذة العريضة إلى مجرد لوحة باهتة الألوان توهج بلون ابيض حيرى يوسع النظر. وطيب الخليزى يقيس لها ضغط الدم.. ويتحدث إلى صديقها الفاسطية. وهى تحاول الخروج من النفق برغبة تحرقها فى بقاء الألم مدفونا حيث كان.. ومن حالة التأرجح بين الغفوة والانتباه استطاعت ان تلتقط من كلمات الطبيب انها تعافى لتوها من حالة انهيار عصى حرجة - وانه يوصى الجميع بأن لا يذكروها بما حدث.

ما حدث؟ . ماذا حدث؟ ابيضت الستائر والمريبات ثم اخترقت وهج الايضاض كرة حمراء ثم اسودت ولم يعد هناك شىء - وعلى حافة

يقول يوسف انه استاذ مساعد فى كلية الآداب. ابن ناس ووحيد امه.. ماذا يتوافق هذا مع ملامحه . شرته البيضاء وشعر رأسه الفاتح اللابل للشرقة ووجهه الخالى تماما من اى آثار خلقة الذقن أو الشارب . (هو الذى يسمى فى لغة الرجال «اجرودى» - ربما ولكن خطوط جسمه المنحبة ورشاقة حركته اثناء قيادة السيارة. تغرى بالـ)

ساعتها فقط انتهت إلى أنها سبت سيارتها الجديدة فى الشارع المؤدى للحارة عند بيت زيس العائدين ' صرخت فأفرعت كلا الرجلين ' اسخطها ان تنسى اليوم كله يعصها وعبارات التهذنة التى يسرى يوسف فى اغراقها بها تثير فيها اخنوع عادا بها إلى سيارتها احديدة سارت خلف هاسى حتى اتصحت لها المعالم فانطلقت متصلة عنهما بسرعة اثار دةشة.

«ما الذى اغضب صاحبك لهذه الدرجة حتى رفضت ان تقلك معها نم ابتعدت عنا وكأنها نفر من وباء».

- زيارة اسرة زين اركتها واصابنها بالاكثاب.. ما كان يجدر بى ان اصحبها معى!..

. وقرب فيلا «لوران».. سألها بعد صمت طويل .. «خطيتك؟»..

- انها اخت صديق.. وهى متزوجة ولها طفل!

.. فى شقة «جليم» المظلة على البحر وقف رفيق ينتظرها وحين لمح سيارتها تقترع هرع ليستقلها فى مدخل العمارة «اسمعى! الافندى روح حضرتك وصل فحة».. وهو يتفرك مع ابيك وامك إلا تشبرى المشاكل ودعى اليوم يمر سلام!..»

تكلمة اليوم!.. اى مشاكل تلك التى يتحدث عنها رفيق؟ هى لا تريد ان

العودة كانت هناك فتيات يرتدين الملابس المحلية ويرقصن رقصتهن المعبرة التي يطوحن فيها الشعر الطويل يمنة ويسرة على إيقاع لم تسمعه لأن أذنيهما انشغلتا بأغنية لرجل من أهل البلد يغنى متأوها عن القلب للمتاع الذي لا يحتمل غيبة الحبيب ليلة.. وتقاطعها ترنيمات فولكلورية من تراث المنطقة عن مركب الهدهد.. «يا مركب الهند يام دجلة.. باليتنى كنت ربانا.. لاكتب على دفتك سطرين.. اسم حبيبي وعنوانا..» ثم تزكم أنفها تلك الروائح الحريفة في حى يقطنه الهنود.. ورائحة لحم محتلطة برائحة مخلفات الاغنام ولبن الماعز في وجبة «المنسف»! نفس الرائحة التي تصاعدت من وجبة اللحم الجاهزة التى انتاعها الزوج لتكون طعام السهرة التى دعا اليها كضيفه المليونير الذى كان يفترسها بعينه منذ لحظة وصولها إلى مدينته الميوعة الوياح بظلال ارواح البشر ويدفعها بوع من الطاعون لم يرد ذكره إلا فى العهد القديم.. انفاس الرجل والابخرة المتصاعدة من فمه تسامعها اينما ذهبت.. وحين شكته إلى زوجها نهرها وأمرها ماى تكون لطيفة مع الناس الذين يملكون مقادير الأمور.. ولن بعضها احد أو يأكلها!.. هذه الليلة يا خيرى يهمس فى اذنى طوال السهرة.. انه يراودى عن نفسى.. ماذا تبسم هكذا؟..

.. من تظنين نفسك؟.. قال لها وهو يتحرك خارجا بحجة صندوق الويسكى فى السيارة.. وأخبرها الضيف بان رجلها لن يعود قبل ساعة لقد تقاضى ثمنك بالفعل يا صاحبة العفة!.. ثم حرت تلك المطاردة العسة التى اكتشفت خلالها ان زوجها قد اعلق الباب بالمفتاح من الخارج وحين خرجت إلى الشرفة وصرخت تستجد.. كانت شرفة مغلقة بالزجاج المدخن العازل للاصوات.. ثم ضربت الضيف «بالقاز المورانو»

فى وجهه.. ليصرخ معولا.. وتهرع هى إلى الحمام وتلق حلماها وتسقط مغشيا عليها لتعود إلى وعيها متسرلة بالوهج الابيض فى المستشفى والمستشفى هذه المرة كان يظل على المتوسط.. وبجانها يجلس رفيق وامه.. يسكان يديها ويحاولان ان يخسراها بأن النذل قد خرج مطرودا.. (هل سمعت؟) ربما فى مسحة خاطفة.. حين احترقت ورقة البحر وهج الزوال!..

«اين يوسف؟» يوسف كان هنا.. كلاله يكن يوسف وحده يستطيع ان يحرجنى من القاع!

خطا المساء المطر

شرفة الياسمين والقنديل الاخضر تشهد حلولا مبكرا المساء غير عادى وجدالا ساخنا بين هانى وامه فى حضور يوسف الذى احس بحرج شديد واراد ان يتسحب..

.. بل ابق يا يوسف.. هانى يتحدث عنك دائما بما يؤكد ان لك تأثيرا عليه.. ليتك تصحبه.. يصحبنى سائى شىء يا امى؟.. زواحي أمر يحصنى وحدى..

الام تكاد تحن لاصرار هانى على الزواج سأحت زين العائدين وهجر «ناسى».. تلك التى خطت له منذ عامين كاملين واتصفا مذ شهرين على انمام الزواج!.. والنت «القطعة».. تحفه حقيقة تحمل بذرة حملات فرسى من امها.. ووحاة المال والمركز الاجتماعى من ابيها.. كيف يمكن لهذا «الولد» ان يكون بهذا القدر من الغباء؟

مرت دقيقة ريح سريعه بلا مقدمات.. وعمقت ظلال المساء الرمادية حين اطلت تلك السحب التى حثمت فجأة وقد ناءت بحملها (اى مساء

غريب! مطر قبل أواخر سبتمبر .) يوسف يفسر الأمر: هي نوة غسيل
البليح. تأتي كاعلان مبكر عن حلول الخريف!.. تركت السيدة الشرقة
مسرعة اذ كانت تمقت المطر.. وبقيا هما يستشققان رائحة الشتاء
بمخزون الحر في الجدران والارضية.

.. في المناطق المدارية تهطل الأمطار الغزيرة في مناخ حار.. اما عندنا فلا بد
ان يقتصر المطر بالطقس البارد.. جسمي مبلل. ولا أعرف هل هو عرق ام
مطر!..»

ونزع هاني قميصه. ولم تكن هناك ثياب اخرى تحته «هيا.. انزع عنك
ثيابك مثلي.. ودعنا نتحد مع الطبيعة الام!.. وضحك يوسف
- الطبيعة الام تفرض ان نكون عرايا كما ولدنا!
- ولم لا؟ فلتنمر كأننا نولد الآن فقط..

تردد يوسف ولكن هاني الذي رافقه اللعبة راح ينزع عنه قميصه..
«.. عيب عليك يا شتا والشمس طالعه. واحدة من أهاريح الاحتف.
بالامطار.. كم كانت عذبه دافئه تلك الحبيوط المناسبة من مسارب الشعر
في الرأس إلى الحصة فالانف فالفم.. وعبر سلسلة الظهر إلى مفترق
الأيدين. وحفل الاستحمام الجماعي على سطح البيت في دابر البحر
كانت امطارا صيفية ابصا.. ويومها قالت الام جارية ان مطر الصيف لا
وان يعقبه موت زعيم أو رئيس.. وبعدها بشهر واحد مات جمال عب
الناصر..
- آيا.. مالذي بيكيك؟..

كان خليل الشفيقي يكي كالأطفال بين رجال الدناير الذين اصطفوا امام
محلاتهم أو جلسوا على الارصفة يخبطون رءوسهم بأكفهم.

ويصرخون بكلمات احتجاج ملئاع.. والنساء يسرن زرافات وقد ارتدين
السواد واعتصبن بغللات بلوحن بها وهن يطلقن «الصويت».
- شردت مع الامطار مثلي؟

هاد يوسف من رحلته القدية ليتأمل هاني مبهوتا. اي لونة اصابته حتي
يقف عاريا تماما في الشرقة وقد ضم زراعية متقاطعين حول صدره كمثل
فرعوني.. وراح يلحق قطرات المطر المناسبة على وجهه باستمتاع.. ولم
يصدق يوسف ان ما يسمعه هو صرخه حقيقية حتى التفت ورأها تحمق
في هاني ذاهلة ثم تدور على عقبيها وتجرى..

احمر وجه هاني اخيرا وهو يغمغم: هي ناسي! لا أعرف ما الذي اتى بها
في وقت الامطار الغريبة!

نهدي أم هاني من روع الفتاة «هكذا هو يا عزيزتي.. يعشق المطر! وعلى
كل حال لم يكن يتوقع حضورك..». ودخل الرجل الرقيق وقد ارتدى
ثيابه.

كألوان قوس قزح الذي يحرم السماء عقب انتهاء الامطار.. كان هذا
الرجل اي رقة فيما فعله هذا المساء؟ التوحد مع الطبيعة بلون المطر
الرمادي. والخط الاحمر يتمدد خجلا في عينيته وزرقة الحزن السايغ
حواله في القلوتين كشعيرات انتها الغضب وغسلها الدمع يبدو شرسا في
لحظات انفصاله.. وريقا في اقترابه..

ياخي يفتاته ناسي ليقدمها ليوسف الجالس وحده في الصالون يعاني من
بلله المزري.

- يوسف.. رقيق الليلة اياها التي حدثتك عنها.. صحفى بابيه يتطره غد
واعد.

خط الليل وآخره

في حجرة الخلوس العتيقة كانوا هناك في انتظاره . حسن الغرب الذي انتفخ ذلك الوريد فوق حاجبه اليسر واكسى وجهه بصراحه حزينة واحمرت عيناه دلاله ارتفاع الضغط (حذره الدكتور شعيب مرة بأنه «يموت صريع سكتة دمائية اذا لم يراع ضبط ضغطه» .. وسيد المرسى منهمك في لف سيجارة «ملقوفة» . وجازية تبكي في صمت .. وباطه تلتظي انفعالا وتولى عن الجميع ابلاغه بالقرار:

«يوسف يا حبيبي انت وحلك من يمكنه حل الاشكال .. اذهب إلى بيت على الاحسن وعد برمانه ! .. حس شرانتي واذا اصطدم بعلى ربما قتله وتكون مصيبة .. وسيد «نى» لا يستطيع مغالبة الاحسن .. وأنا ساضرر «المارة» بالمدايس ! وتكون فضيحة .. رمتهم بنظرة متعبه مثقلة وقال: «البلغنى على ظهرا انه لن يسلم راما إلا برغبته . فلنذهب امي سيخجلا .. ولن يرجعها خاتنة».

اجهشت جازية بالكاء ..

«لويد ان اذهب لاشحذ بتى من عمك روضه؟ .. ترضاها لامت هاوسف؟

«فليكن سأذهب .. ولكن ماذا أفعل لو رفضت راما ان تعود معي .

لكن سيد المرسى . سنعود اذا ابلغتها انا صرفنا النظر عن العريس للرؤوس .. ويهب حسن واقفا كالاعصار:

«ورحمة أبى في يومته لازوجتها بمن اريد .. اذهب يا أحلى وبلغ اذارى الأخير لعلى الأحسن .. عليه ان يحمل بنت راما حملا ويبيدها إلى هذا البيت ماذا ولا فليعد نفسه عدوى ليوم الدين . وسأضعه في دماعى ولن

الفتاة شقراء باهرة .. كشف بشرتها الوردية حتى لتبدو غير قابله للمس .. وصدرها الفتوح للمتصف يشى بكاعيين ثريين يعلوه عن رومانى ورأس فرعونى توسطه عيتان بنفسجيتين . «بعم احسبك عليها! وتريد ان تتركها لربيب احت زين؟ .. أه .. لعلى مدنف بحد رحاب . لكنى اتنى ان «امتلك» ناسنى هذه . أيها الكافر من يجحد النعمة يستحق لعنة الاولين والآخرين ! ألا تحس بمنعة وكسرياء الاملاك؟

. في طريقه للخروج صحبته ام هانى «بالله عليك يا ولدى اهذه البنت ترك؟ لم يجيبها .. لأن السؤال يحمل اجابته . ولم تكن هى توقع منه ان يجيب .. همست توصيه: «لا تتركه يا يوسف القلق عليه يفسر سنى ويعاودنى كابوس أراه فيه يفرق وسط البحر ويستغيث ولا يسمعه احد أما فى الشرفة حيث غسلت الامطار كل ما علق بفروع الياسمين وزجاج القنديل . فقد جلست «نانسى» صامه كفيها بين ركبتيها .. تنظر لهاى عابسة منصته وهو يبلغها بقراره التعس .. «انت ملكة حقيقية .. تستحق عرشا يطوف حوله ويسجد امامه افضل رجال البلد . وأنا صعلوك فى داخل . حقيقتى أسوأ كثيرا من مطهرى . لست ذلك البيل الذى يظه الآخرون . فقد وقعت فى عرام من لائذاتيك ولا تستحق ان تكون وصيفتك . أنا لست جديرا بمثلك فانفضى يديك منى .»

صغطت نانسى بقوة على كرزى شمتيها حين ايضتها وشحب نور وجتيها . وابعقد ما بين حاجبها - ربما منعنا لانفجار وشيك - ثم نهضت وخلعت حاتم الخطبة من اصبعها وفى تودة وضعت امامه على «الشرقة» . وادارت له ظهرها .. ربما للأبد!

٩- معنى الخط الدائري

يهدأ لي بال حتى أقطع فرطه من الدنيا.. وتقول جازية نادبة الدهر الذي جعل فلذات اكبادها يتبادلون الحقد والكراهية . ويعترض يوسف : « لا داعي لاعطاء الامر حجما لا يستحقه . راما في بيت شقيقها وله فيها مثل مالك يا حسن ! فلتركها هالك حتى تمّل .. انتم تعرفون البنت . لا تستطيع ان تعاشر عمتها ولا بنت عمتها .. وعاجلا أو آجلا ستشتعل النار .. وستعود برجليها . اما الزواج فلا توجد هناك الآن بنت ترغم على الزواج .. »

يجار حسن قاضيا : قلت لكم ان علي الاحسن قد وضعه في حيه ' هذا جورنا لحي « حلتجي » يلعب على الجميع ويصف مع الراجعه .. ولا أمل فيه .. سأذهب انا وآتي ببنت الكلب ولو سلسلتها بجنزير !

خرج كريع عاصفة ولم يسمح لاحد منهم بمراجعته رغم صراخ جازية وباطه التي اهابت بسيد ويوسف ان يلحقا به حتى لا تقع كارثة في بيت علي ..

طمأنها سيد مؤكدا ان العمة روضة موجودة .. وحسن بهاها ويعمل لها ألف حساب .. وأمن يوسف على رؤية بأن حسن يحمل قلب طفل ير جنيته .. « سيد هلزه » علي الاحسن ويلفه حول اصبعه الخنصر .. وتقول باطه : « اكرهك يا ولد يا يوسف حين تتحدث عن شقيقك الاكبر هازئا » لكن باطه تعرف اكثر من غيرها إلى أي مدى يحب يوسف أخاه

السقوط فى فخ الظهيرة:

حين يفلق يوسف على نفسه باب حجرة البرج يفصل تماما عن عالم البيت فإذا نام فكأنه «غطس» فى بئر لا قرار له . ويغيب عنه تماما كل ما يحدث فى عمق المنزل حيث تقع حجرات باقى أفراد الأسرة.. لكن الليلة حارة.. ومسامه ينسجس منها العرق كالميازيب، « الرطوبة هى المشكلة ! من الجاهل الذى ادعى ان رطوبة الاسكندرية تنتهى بانتهاء اغسطس؟.. ها هو سبتمبر قد انتصف وكل شيء ساخن مبلل والانفاس تترزع تحت ابخرة الماء المشبع بالملح واليود.. سبتمبر؟. لماذا نستخدم الاسماء اللاتينية المشهور؟. ولماذا لا نفضل الاسماء الأخرى التى يستخدمها أهل الشام؟.. يامال الشام يحلوا يامال. طال المطال..! أيلول أحلى من سبتمبر وتشرين أكثر جمالا من اكتوبر . إلى أى لغة تنتمى تلك الاسماء.. قال عمرو ذات مرة إنها اللغة السريانية!.. فى أى قوم تنتسب؟.. لا توجد فى التاريخ حضارة سريانية!.. فى تلك المنطقة كان هناك فقط سومريون وآشوريون وكلدانيون وبابلونيون وفينيقيون... ولم يكن هناك سريانيون .. اذا فلغة من تكون؟.. لعلها لغة سرية؟ سرية أم سريانية؟.. لعب

بالالفاظ.. أو لعب بال... يبدو ان هناك صلة ما بين الحروف
والخلط لايجوز بين الاسماء والصفات . واذا كانت سرىانية تشبه
سوريا أو هي نفسها بنطق مخالف لكنها لا تعنى السرية! . وجدته أم
خليل اسمها «سوريا».. سألته مرة فى طفولته: ما معنى سوريا؟ فى
اسرته وأسر أخرى فى الجوار تسمى النساء كثيرا باسماء البلاد
فهناك فرنسا وتركيا . وأعجب من سميت كذلك الحاجة «حجازية»
هنا بنت حجازية.. شعرها صانى.. لفتته على حصانى.. وحصانى فى
الحزانة.. والحزانة عايزة سلم.. والسلم عند النجار.. والنجار عاير
مسمار.. والمسمار عند الحداد . والحداد عاير فلوس.. والفلوس عد
الصراف.. والصراف عاير بيضة.. والبيضة تحت الفرخة.. والفرخة
عايزة قمحة.. والقمحة عند التاجر..

اتصلت السلسلة حتى البقرة التى ترفض ادراك اللبن لأنها تريد الحشيش
والحشيش فى الجنة.. والجنة عايزة حنة.. والحنة فى ايدين البنات
هل الحشيش هو حشيش المرحى؟ ذلك النبات الأخضر البرى الذى
يكسو المروج.. أم هو «حشيشة الكيف».. كله نبات ياسى يوسف
كلا البقرة لتأكل «القب الهندي».. الذى كان يدسه «حسن الصباح»
لمريديه فى قلعة «الموت» فيسطلهم ويوعز اليهم وهم عارقين فى
اوهام «السلطان» انهم قد دخلوا الجنة.. «والحشيش فى الجنة!.. أما
البقر فاذا تناولوه فقد اصابهم الجنون.. جنون البقر!.. النوم يداعب
جتونك وتخاريفك تنداح بلا نهاية «على النعمة انت المسطول الاكر
بلا حشيش.. النوم قادم على فراش من المخمل والمخمل هو
القطيفة»..

- ارايت يا أحلى؟.. أحوك حسن اهدانى بمقطع قطيفة «زبدة» فى عيد
الأم.. حاجة جازية.. لم تسميها قطيفة زبدة؟.. ألهها نعمة الريدة؟
الله على رائحة الريدة التى كانت تفوح من ثياب عمى روضه حين
تحتضننا مريحة أيام القرية . وباسلام على رائحة تسبيح الريدة فى
موسم البرسيم من كل عام.. ولا «المورثة»!! موسم تخزين السم
البلدى . وموسم تصنيع الصلصة.. وموسم تشوين القمح وغسله
وطحنه.. بنهملك البيت كله فى اعجاز المهمة وتخلو كل الغرف
لألعاب الصبيان والبنات.

كن يحبك يا يوسف.. كل بنات دابر البحر.. وكن يختلسن الفرس
لقبيلك.. (ياولد يا معظم قلوب الحسان.. ماذا دهالك؟.. «خشرت»
واصابتك الدمامة مع تباشير النضوج . لكن نانسى هذه حكاية.
والأحمق هانى يريد زينب! كلها واشيع بها . ودع لى نانسى التى
لمحنى «صهدا» لحظة أن لامست اصابعها.. اصابعها فقط.. فما
بائك لو..؟ لو ماذا يامسطول؟.. امرأتك هى رحاب هى انك
الموعدة.. رحاب.. حلم لياليك الذى لا ينادر.. لا يرح..
فى التليفون توصيه كل ليلة..

- خذنى فى حضنك واضمض عينيك..
وتهزج أم كلثوم . «هادن منى . وخذ اليك حنانى.. ثم اغمض
عينيك حتى ترائى».. متى دخل الفجر.. ومتى رحل.. ومتى
نسلت الشمس ثم ارتفعت ومتى حلت الظهيرة؟.. تغيرت الدنيا فى
ساعات نوم يعتصب متأرجح.. انتهت حين سمع الدقات على
الباب.. خفيفة متكررة ثم صوت الأكرة و«تزييق» المقصلات

الصدئة.. لم ينتظر ليسمع صوتها فقد كان يعرف انها هي . ولم ينتظر عودة حسن الغريب ليلة أمس .. ليعرف نتيجة ريارته ليت شقيقه على الاحسن . كان واقفاً.. على أذكى . ولكنه فى اعماقه يحترم شقيقه الاكبر إلى حد الخوف . ولن يستطيع ان يصده رعم تحريضات عمته روضه وحرمة الست أمارة..

- راما ! اتركينى اكمل نومى..

وراما ! تدغده فى بطن قدمه ضاحكة . لا بد ان تنهض فصاحك تنتظر !

من ؟ لا بد انه هانى.. ماذا يريد هذه المرة ؟ . اعتدل حالسا على طرف السرير .. أدهشه ان يرى كل هذه البهجة على وجه رمانة !.. وهو يعرف انها ستمود مع حسن.. ولكن كارهة مرغمة.. وكان يتوقع أن يرى تورم عينيها من الكاء واكفهار سحتها .. وطول لسانها كشأنها كلما حزنت أو غضبت..

- حير ان شاء الله؟ ما الذى يهيجك فى عودتك لدابر البحر ؟
- تعمد الغريب واقسم على المصحف امام الحاجة روضه انه لن يرغمنى على زوج لا أريده..

وفى حجرة «الجلوس».. لم يكن هانى..
جاء رفيق بصوته الاجش..

- مكتوب على ووق جيبينى بان الشفقى.. كائى خلفتك ونسيتك !
- ماذا تريد باين الخوينى؟ . وقبل ان تحيب بكلمة موضوع رحاب غير مطروح لاي نقاش.

- وحياة الحاجة جارية؟ تريد ان تحرم على مناقشة ما يتعلق بأختى؟

حقا.. انت فاجر امن فاجرة.. ومع ذلك لم آت من أجل رحاب..
حئت من أجلك انت وان كنت لا تستحق... هيا.. لا يوجد وقت نصيحه.. الناس فى انتظارنا!

- أى ناس؟
لم يتصور يوسف للحظة ان عبد الرحمن الرمادى سيظهر ثانية بهذه السرعة! ودق قلبه بعنف.. ما الذى أرجع الرجل إلى الاسكندرية بعد ان غادرها منذ الحادث مع افراد الأسرة جميعا؟.. وماذا يريد منه؟
السؤال ساذج. والموضوع لا بد أن يتعلق بقضية حالة وزين العابدين)..

صعود جبل النهار

لم يتجهها صوب الغرب هذه المرة، لرم رفيق الصمت عابسا وأدرك يوسف أنه قد جرحه حين ففتح موضوع رحاب.. وانتبهك مشاعر المسئولية داخله نحو أخته..

- لم اقصد ما قلت يارفيق لكنك تعرف قصتى مع رحاب.. وتعرف ما جتته ايديكم على وعليها.. لم يعبه رفيق وظل مكفها حتى توقف أمام ذلك الفندق الفخم.
- إنزل!

لهجة أمر صارمة تشى بمدى ما يساوره من غضب!.. «نادرة تلك المرات التى غصب فيها من يوسف ولم يدم غضبه فى اى منها اكثر من دقائق.. كان يحبه لدرجة انه لم يناقش حتى مع نفسه درجة ارتباطه بصداقته حتى جاء ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام خلت.. حين انفجرت بينه وبين ابيه خناقة لرب الجحى لانه طلب منه ان يتعد عن

يوسف.. وانتهت بالجوئى الكبير إلى وجوم أخرس لم يفارق علاقته
بابنه بعدها.. فالاول مرة يداخله الخوف من ابنه الذى راح يخور
كالثور.

- اسمع يا حاج والله لو عاودت الحديث فى هذا الموضوع لأذهب
إلى السجل المذنى وادفع رشوة مليون جنيه لاغير اسمى من رفيق
الجوئى.. إلى رفيق الشفقى . وأقول للناس اتنى فعلتها لأن المرحوم
خليل عبد البارى الشفقى هو أبى الحقيقى!.. مبهوس!..؟

لكن شيئا أقوى من الغضب كان يمنع الرجل من النظر إلى صاحبه أو
اللائفات نحوه! هل يكون احساس مبكر بالذنب؟.. ربما.. فرفيق
كعادته يساوى بين جميع الاحتمالات وان تناقضت..

الجناح الملكى فى الفندق يبدو وكأنه جزء من قصر حقيقى
والرمادى.. وابنه.. ابو هالة. يبدوان فيه كصاحبى جلالة بكل هذه
الفخامة التى يرتعان فيها.. ولم يقطن يوسف فى بادىء الأمر لرجلين
أو ثلاثة مجهولى الهوية يتسائران فى اماكن غير ظاهرة وقد برزت من
نطاقاتهم تلك الغدارات الموحية بخاطر لا يبين.

هش له عبد الرحمن وقد علت وجهه ابتسامة ودود لم يمنحه مثلها
من قبل..

- أهلا بالصحفى التابعة! لعلهم يماملونك الآن بالحسنى فى
الجريدة!..

«بداية موفقة يا عم عبد الرحمن ها أنت تلوح بالجزرة قبل العصا
وان خبيت ظنى.. فلم اكن اتوقع منك هذا الأسلوب المباشر الفح
ربما كنت انتظر نوعا من المناورة الذكية

لماذا يتسم هكذا فحاة؟.. اتراه يقرأ الافكار؟.. ابتسامته هذه لاتعنى
إلا معنى وحيدا.

- اصبر على رزقك فالأسطى لم يلعب بعدا..

فى وسط الثروة عس صلة قديمة تربطه برئيس التحرير فاجأه بسؤال
الانتقال.

- ماذا قلت فى تحقيق النيابة فى قضية الشاب الذى وجدوه قتيلا
خارج فيلا «هالة» بمارينا؟

(الرجل ثعبان حقيقى أفعوان مقرر يعرف متى يلف حول نفسه
لينقض! المهم ان تحترس وتحاول دائما دفعه للانقضاض العشوائى
الخائب.. وستذكر له ببساطة انك ادليت بما رأيت..)

- فعلا انت لم تر ملامح من كانوا هناك ليلتها!

- لكننى أعرفهم..

ساد صمت ثقيل.. كان اطنانا من رطوبة الصيف المحتضر قد سقطت
فجأة داخل الجناح الملكى فألجمت الألسنة وأعيت الأنفاس.

وجعلت من جو المكان وسيطا دبقا له طنين ذهاب غير مرقى.

وبعد ثوان بطيئة متجمدة تزحف ببطء اللحظة الراهنة.. جاءهم
صوت طفلة تصرخ فى تمثيلية تلفيزيوية كأنها تكسر حاحز
الصوت وأشار الرمادى بأصبعه فانفلق جهاز التلفيزيون..

- ايمكن ان تذكر لى اسماء هؤلاء الذين تعرفهم؟

- حفيدك على رأسهم!

تدوجت كرة الثلج من القمة فى طريقها إلى السطح وراحت تستدبر
وتتكور وتضخم.. حتى اصبح من المستحيل ان تصل لمستقر فحالة

الحركة الدائمة هي «وجودها» الخاص.. ومرت ثوان أخرى أطول من سابقتها قبل أن يخرج صوت الرجل كما كان . رخيما.. وادعا كأنه يردد أشعارا يحفظها:

- هل ذكرت هذا في التحقيق.

- سيدى أنا أعرف! ولكنى لم أر لهذا فلم اذكر اسماء كنت افكر تحديدا في الفارق بين التاجر القاضى وبين الناجح والعاذل.. (أحس وهو يتدفق انه يقول أشياء لأمضى لها ورأى الرجل يحملق فيه متفرسا ويحاول ان يبين اذا كان جادا أم هو يسخر منه..)

- ولقد كنت محددا في اقوالى رغم محاولات المحقق ان يميل بها واصررت على وجهة نظرى فى التفرقة بين الرؤية بالعين والمعرفة بالمطق والادراك العقلى.. الاولى ثابتة ثبات الجهاد والثانية قد يداخلها الخلدس والتصور.. هل تخطى حاجز الصبر لدى الآخر؟.. ربما.. فالرجل يتململ) - اذا كنت تشك في يقين ما تعرفه فلماذا تذكره؟

- حتى لاتدو شهادتى بلهاء ويظن المحقق اننى اخشى ذكر الحقيقة!

- وصديقك الآخر؟ استاذ الجامعة! لماذا لم يفرق مثلك بين الرؤية والمعرفة؟

- لانه واثق من أنه رأى «تعرف»!

كان رفيق طوال الحوار يرمقه بنمس النظرة الغاضبة والسحت المكفهر.. والان تملو وجهه مسحة من دهشه منزعجة وتحولت نظرته إلى تحذير مستغيث.. بينما تخللته هو مشاعر مسكينه صوبه

كأنها نسمات عليلة تسيل في يوم قاتط.. حتى لقد أحس بالعاطف مع الرجل الذى وصفه منذ دقائق بالأفغوان.

وحين رآه ينهض من مقعده الوثير ويتمشى ببطء في المساحة الكائنة بين شرفة الجناح والبهو الصغير المحاور لحجرة النوم.. مثيرا حركة تأمير مرتبكة لدى حراسه ومرافقيه. كان على يقين من ان الرجل يعانى من حيرة حقيقية.. وحين توقف احيرا بجوار مدخل الشرفة واثار له ياصبغه ان تعال لم يضطرب أو يساوره اى خوف ومضى إليه حتى كاد ان يلاصقه ويحس بحرارة انفاسه المشبعة برائحة «التبناك» ولاحا في عيون الآخرين كأنهما صديقان يتساران بعيدا عن المسامح الفضولية.

- اسمعى يابنى! أريد ان احدثك قليلا عن المملكة التى شيدتها واتربع الآن على عرشها.. أموال ترصف المتوسط من الاسكندرية وحتى أزمير أو ينوسيا.. أعمال تفتح بيوت خمسمائة موظف وألمى عامل. مصالح حلقت حولها سياجا من الحماية الشرسة لان العبث بها لا يمكن قبوله أو السماح به. كيان اصبح عامودا من أعمدة كيان اكبر هو اقتصاد بلد بأسره. والمساس به دونه دماء تفرق الجميع! أنا اكبره ما حدث. مثلك تماما وضميرى لابقره

والمسألة لا علاقة لها بحبى لحفيدى. فالخطر اذا تفجرت هذه القصية سيتجاوزها إلى السمعة والصيت والمركز المالى وقيمة الأعمال فى السوق والبورصة وقد يؤدى إلى الخراب ويدمر هذه المملكة لتسقط انقاضا تدفن تحنها مئات الأرواح! . شهادتك فى التحقيق متوازنة ولا اعتراض لى عليها.. وتفرقتك بين الرؤية

والمعرفة بعض من عبقرية تأثير الاعجاب.. لكى اطمع ملك فيما هو اكثر.

سكت يتامله ربما ليتعرف على رد فعله.. وكان يوسف مستشيا يتسم ويكمل له ما يعنيه.

- شهادة هانى الكردي! اليس كذلك؟

هذا العجوز رأسه نائبا كأنما خاب أمه فى ذكاء الفتى . ثم قاده بلطف إلى جلسة الشرفة.. ومنها كان النهار يطل من عل ليفرض غلالة من الرهبة المتوحشة على مخلوقات وأشياء صغيرة لا يدانيه فى السيطرة عليها إلا الأزرق المتوسط.

- صاحبك هانى أمره ميسور وستكفل به!

. جاءه واحد من خاصته بالنارجيلة.. «أتريد واحدة؟ عندى تماك إبرانى لايمادلة تماك فى العالم.. وادا أردت معسل عادى (لزوم الحشيش) فلدى هبو لبنانى اصلى غير مخلوط.. اتعرف ان لى مزرعة فى سهل عكار بها محرقة حشيش خصوصى لتجميع «الهبو» .. لا تنظر لى هكذا! انا لا أتاجر فى المخدرات.. المسألة كلها لاستعمالى الشخصى واهداء الاصدقاء .. وصاح برحل الخدمة..

- جهاز «قرشين» واصلهما لبيتى الاستاذ يوسف والاستاذ رفيق!

وقبل ان يعترض عاد الرمادى إلى هدفه.. تحدث طويلا عن حاجة المصالح الاقتصادية الكبرى لدرع صحفى يحميها وعن إيمانه الراسخ بما يمكن ان يفعله صحفى وطنى ذو ضمير اذا تولى امر صحيحة جديده ينوى الرمادى مع رجال أعمال آخرين ان يصدروها وشيكا

- واذا أردت ان تكون اصغبر رئيس تحرير فى تاريخ الصحافة المصرية.. فالمنصب تحت أمرك!..

كان النهار طويلا مجهدا . صعب الارتقاء.. وكان المساء بعيدا. غامضا.. ممعا باحتمالات المساء طبعاً هو أسبب وقت للزيارات الودية، ولو كانت مفاجئة وبدون موعد سابق وقد رفض الخادم المس دو الوجه النوى الصارم ان يسمح للصيوف بالدخول فلم نخطره الهانم انها تنتظر احدا.. أما الدكتور هانى فقد اغلق على نفسه حجرة المكتب وهذا أمر غير مباشر منع ازعاجه لاي سبب.. ولكن الحاح «الفنات» الاشداء المتحلقين حول عبد الرحمن باشا دفعه آخر الأمر لادخالهم إلى الصالون.. ومضى يعلم أهل البيت وقد اوقن ان الليلة ربما كانت آخر عهده بالاسرة التى خدمها طوال خمسين عاما

عنتمة المساء تنسكب فى الافق. وفى قلب يوسف وهو يشهد أنوار الاستقبال السفلى تضاء . وفى محل الطعام السريع المواجه للفيلاد راح يرشف فنجان القهوة الأمريكية وهو يفال فصوله.. منع نفسه اكثر من مرة حتى لا يعبر الطريق ويدخل لبرى ماذا أتى بالرمادى الكبير إلى هانى الكردي.. ربما كانت هناك ارهاصات أو احتمالات تدور فى ذهنه . وتمحور حول لقائه مع الرجل فى الظهيرة (لا شك انه سيقدم جزيرة أخرى للرجل الرقيق.. ليت هانى يتأنى قليلا ولا يفجر اللقاء قبل.. قل ماذا؟. قبل اى شيء فالمعصب سيد كل الطرق.. وعليه ان يحذره.. وهب مسرعا إلى التليفون

- اخبرنى مسعود هذه اللحظة.. وسارتدى ثيابى لأقابلهم..

- اسمع الرجل للآخر بادكتور لاتدع غضبك يفسد الأمر .

- كأنك تعرف ما يريد؟

- كنت فى طريقى إليك حين رأيته يسبقنى.. وأردت ان ادرلك قبل ان تغطى صهوة العزة بالإثم!

.. فى الصالون تمددت شحنة كهرومغناطيسية تشيع النفور والغض (لم يتعود الرمادى ان يحب احدا وكان اللفظ نفسه يثير نفوره إلا اذا تعلق الأمر بهالة منها لله - هى سبب كل ما يحدث). وهو لم يحاول ابدا ان يسأل نفسه عن مشاعره تجاه اى من يتعامل معهم.. ولكنه الآن لا يملك إلا ان يكره هذا الرجل ذو البشرة الببلورية التى تنف عن أدق شعيرات الدم.. والعيان اللتان ندوان مشعتان بوهج ليلى مبكر.

وهانى يتأمل الرمادى لأول مرة عن قرب بعد ان لمحعه سريعا ليلة خسوف القمر ومصرع زين العابدين.. وشعر ببرودة غامضة ترتجف فى أعطافه «الرجل له رائحة الفورمالين فى المشرحة مختلطة بعطن رماد التمباك المنبعث من مياه النارجيلة عند تغييرها» لم يرحب به.. سألته بجفاء عن سبب الزيارة..

- اتهمت حفيدى فى تحقيق النيابة بأنه قتل ذلك الفتى ليلة عيد ميلاد اقمته فى بيتى!

- لقد رأيته!

- كيف يمكنك ان تراه فى ظلمة الليل بعيدا عن الاضواء؟!

- لقد رأيته!

- خدعتك هناك.

- لقد رأيته!

- إصرارك هذا يشير إلى بية مسبقة للإيقاع بحميدى.. أجل.. فمن انت اولاً . وما الذى جاءك كثيرة تبعثرها الحيرة فى طريق الليل كاللغام.

قارب يبحر على قوس الافق:

خمر الظهيرة حارة تلذع على اللسان وتصيب الحسد بالخمود وتتكسر وسنا تحت الاجفان! لكنك لم تشرب خمرا.. فماذا سقاك الرمادى؟ ما الذى جعلك تقبل هدية المخدرات تصل إلى بيت التسقى فى دابر البحر؟ وما الذى ابقاك صامتا وهو يتلو عليك مزاميره؟ الافعوان يقدم لك رشوة صريحة.. ثمرة الجذر معلقة بخيط.. ولكن العصا محتفية! لماذا لم تجادله لظهرها؟.. سيارة رفيق تقطع الطريق.. يقودها وقد ذهب عنه غضب الصباح وانفجرت عيسه ما بين حاجبيه وهو يتغنى بالسعد ووعد الرمادى الذى يفتح أبواب الفردوس.. رفيق راض عنك لانك بدوت فى عينيه سمكة ميتة خرجت فى سناة الرمادى.. التسقطت الطعم يابن الشمقى.. وانفجرت الحربة فى حلقك.. فهل تستطيع الخلاص!..

- رفيق! انت تعرف هؤلاء القوم.. اتصل بهم فورا وامنع حامل المخدرات من الوصول إلى البيت فى دابر البحر! ابوس جزمك!..

فاجأت لهجة التوسل ونبرات الفزع صديقه . فرمقه مجفلا متسائلا.
- لانفسد الأمر فى يدايته.. سيعتريها عد الرحمن بك اهانة ويأخذ على خاطره!..

- يأخذ على خاطرة أو يأخذ علي قساء أو حتى مؤخرته.. المهم ألا

تصل الكارثة إلى البيت! لو رأيتها خالتك جازية أو باطه أو وقعت في يد حسن الغريب لقامت القيامة

عادت التقطبة إلى جبهة رفيق وهو يحاول الاتصال عبر المحمول (قيامة من يابوسف باشفقى؟..

نسوة اي بيت في دابر البحر وفي كل شوارع بحري يعرفن الحشيش ويقرن مرص الجوزة للرجال.. أما حسن العريب وسيد المرسي فهم من اساطين الصنف والمزاج في عموم بر اسكندرية آه.. كل ما أخشاه ان تكون على وشك إفلات الفرصة.)

- يوسف! لبوس رجل من الجبوك انتهب فرصة عمرك ولا تفضب الرمادي كان رد يوسف مقتضباً ضاعف القلق لدى رفيق ولكنه اضطر للسكوت على مضض وان لم يتخل عن المحاولة.. قال لرحاب: اذا كنت تحبين ابن الشفقى حقاً فاسدى اليه النصح! الرجل الكبير باداه بالكرم والملاينة وعرض عليه مفتاح المغارة وكلمة السر فإن لم يستجيب كانت العواقب وبالاء.. يوسف ليس ندا لاصغر مقاطيع عائلة الرمادي وعليه ان لا يحاول ركوب الخيل والتظاهر بالقروسية وإلا فعصوه كالصرصار!..

حاولت رحاب ان تعثر عليه ولكن «تليفونه» المحمول لم يرد . فقد نسيه في سيارة رفيق . وكان هو في طريقه لفيلا لوران.. وحين شارب ناحية الشارع المتعامد على الكورنيش رأى السيارة نفسها سوداء طويلة . فحمة بسته أبواب.. همس له رفيق حين شاهدها تخرج من مرآب الفندق لحظة انصرافهما . اترى هذه الليكوليس؟ انها سيارته المفضلة

ماذا تفعل سيارة عبد الرحمن الرمادي أمام فيلا الرجل الرقيق؟.

إلى حفل في بيتي لم أدعك إليه؟

لاحت على وجه هاني ابتسامة غاضبة تشبه إلى حد ما «تكشيرة» كلب أليف ثم استرخى في جلسته ووضع ساقاً على ساق بشكل يشير فيه بالحداء نحو الرمادي..

- هالة ياسيد عبد الرحمن! هالة هي التي دعنتي وارسلت لي بطاقة باسمي مع رين العابدين.. عاشقها ووالد الجنين الذي ينمو في أحشائها!

اصفر وجه الرمادي وتدلّت شفته السفلى لكن عينيه ضاقتا وتجمعت ما بينهما وبين فؤديه بينما احس هاني بخنقة قلب طامت من التوتر الذي أوجع معدته من لحظة اضطراره لاستقبال القتائل ولابد أن الابتسامة التي افترشت وجهه قد آلت خصمه حتى النخاع ولكنها شحذت سكينه التي خباها في ثيابه..

.. وخرج صوته من قلب فارغ كقطب أجوف..

- انت استاذ جامعة ويقولون انك من النوايغ ومستقبلك بعد زادهار! ولاشك انك تريد مواصلة حيائك ملا عترات . وانصحك بأن يكفى خيرك شرك..

لم يدرك هاني انه حاصر الرجل بإهاتته ودفعه لكي يصل إلى احد الأنصى! وانه لم يدع له فرصة لمجرد ان ينسحب بهدوء . واصاب الموقف عبد الرحمن عما يشه الجنون.. وتغنى لأول مرة ان يقتل بنفسه .. بيديه!.. ولم يكن هاني قد اكتفى..

تأتى إلى بيتي مقتحمًا مهددا وكأنك تمتلك البشر والمكان والزمان؟

وتظن انك قادر على الافلات؟ استطيع ان استدعى الشرطة
وانهلك بمحاولة قتلى انت وزبانيتك هؤلاء.. ولكنى لن افعل..
سأستمع فقط بطردك.. ولكن قبل ان تخرج دعنى أبصق فى
وجهك!

نذير الطوفان:

وجده يوسف بعد ان غادر الرمادى مكوما حول نفسه فى ركن
الشرفة ذات القنديل الأخضر.. كان يرتعد ويتصبب عرقا.. واسنانه
تصطك..

- ماذا بك؟ هل أدوك؟

- بل فعلتها أنا.. ثارت قليلا لذكرى الضحية!..

- ولكنك ترتعد.. والجو ليس باردا..

- غطنى يابوسف بأى شىء.. إنها نوبة.. تعاودنى بين الحين والحين

كلما انفعلت! الطيب يقول انها نوع من الصرع!

«تعرف يا صاحي؟.. أخوض فى المياه وأنا لا أجيد السباحة! أنا

أضعف من دفقة موج.. لكنى لا أحشى البحر.. ربما أغرق فى شبر

ماء وأغص بقطرة مطر لكنى اعرف كيف اقود سفيتى إلى الشيطان

المأمونة.. لولا انى ريان أحرق.. أغرق قاع سفيتى

- انت تهذى يامسكين!

- بل أراه يابوسف.. الطوفان يقترب.. وقد رأيته اليوم فى عيني

صاحبك الرمادى..

١٠. خطفى منتصف الليلة

أى نذير بالطوفان يراها الرجل يابوسف؟.. أحقا لاتعرف ولا ترى
ما يراه؟ ألا تسمع الهدير يترامى من أقصى العمق هسيسا فخريرا ولن
يلبث ان يصخب فى الغداة؟

.. فى الصدر تنقل الزفرات ولا تخرج مع الانفاس.. بل تسقط ألما فى
المعدة تكوى له الأمعاء والمعدة من فيلا لورا الى بين دابر البحر
«هذه الليلة» ترسف فى أحلال الحزن..

لا يمكن ان تكون قد أحبيت الرجل لهذه الدرجة وخلال تلك الأيام
القليلة! بل إنك أحسست أحيانا بكثير من النفور تجاهه! ودخلت عليه
حق وغضب فى بعض اللحظات.. وفى لحظات أخرى تمنيت لو لم
تجملعت به مصادفة تلك الليلة! لماذا يبدو هكذا كأنه نقاء محصن. لا
أحد يمكن ان يكون كذلك فاكتمال الخير وهم وتمام البراءة سراب. ثم
ان هناك درجة خفية من درجات الادعاء والتظاهر نلمع أحيانا فتشى بأن
اصماق الرجل لاثخلو من احراش قد تقطنها الضواري..

ماذا بك الليلة؟. اتبحث عن تلمة تلاشى تعاطفك مع هانى؟ تريد ان
تتنكر لما تجاوب له وتر فى صدرك حين رأيته مكوما ضعيفا يعالب
صرحه ومخاوفه وينذر بمجيء الطوفان؟

— لم أحزن طوال عمري كما حزنت الليلة «يا أبله باطه»!

تربعت عطيات الشفقى على الأريكة «الاستايولى» التى ظلت فى مكانها أسفل الشباك السحرى منذ وعى يوسف وتعرف على مفردات المكان. تغيرت مواضع المقولات وقطع الأثاث فى البيت أكثر من مرة بل تغيرت واستبدلت هى نفسها بقطع أحدث. وبقيت الأريكة القديمة هناك أسفل الشباك العريض الذى يطل منه الجالس عليها ليرى التقاء الأفق بأعلى سراى رأس التين.

للمظفر فى ذاكرة يوسف صورة بهارية تسبح فى الشمس تصحبها صفارة الإنذار من العارات الجوية. قيل له فيما بعد أن هذا لا بد أن يكون قد حدث فى تلك النهارات الثلاث التعسة من الشهر السادس فى العام السابع والستين. حين أصيب «بالحصة» وأرقدوه على الأريكة فى رعاية أحته الكبرى عطيات التى أصبحت تمرور السنين سيدة الست الحقيقية باتفاق صمنى بين الجميع بعد خفوت الضوء تدريجيا فى عبور الأم جازية وتخليها العملى عن مسئولية إدارة المنزل..

— أسأل باطه..

حسمت الجملة القصيرة المقتضية الأمر فذهب الجميع الى «باطه» وقنعت الست «حازية» بالمشاركة الرمزية كأن تسرد ذكريات الأسره فى جلسات السمر وتشارك فى فض المازعات الروتينية بأسلوبها المفصل وهو البكاء عالما واستمطار اللعنات السماوية على كل من يعق الأم أو يتحاهل وحوود احنة تحت قدميها ثم الخلود الى اجتماعات «الحيران» فى الشرفات وعلى الأسطح وتبادل أخبار الغرف المغلقة فى بيوت الدايير

وحين تربعت باطه على الأريكة كانت تمارس سلطاتها المعترف بها — دبريني يا أبله باطه!

وباطه هو اسم التذليل الذى كان يوسف أول من استخدمه حين بدأ ينطق الحروف.. تعثرت كلمة عطيات على لسانه فخرجت «باطه».. ولقيت هوى لدى الجميع فصارت اسمها الذى تنادى به ليس فقط داخل بيت الشفقى.. بل فى كل بيوت شارع دايير البحر.. واحد فقط ظل مصرا على ماداتها بعطيات.. ذلك هو الغريب.. حسن. الشقيق الذى حل فى قلبها محل الأب. بينما كان يوسف هو ابنها الذى لم تلده. واما هى الابهة الشكسة الشاردة. وما دويهم كان يعمر أضعفها خفيفا لا يقيم. سيد المرسى وعلى الأحسن. لم يعودا من صلب البيت.. فالمرسى اعتزل الجميع داخل البيت مستقلا بحجرتيه المجاورتين ل«اب السكة» فى الدور الأرضى وبزوجته وابنه الوحيد.. والأحسن أخذها من قصيرها وابتعد عن اخى كله بمملكته الخاصة

— أرى فى عينيك حزن العاشقين «يا ولد يا يوسف»..

— ليس للعشق نصيب فيما أعانيه الليلة يا أخت يوسف!..

حكى لها حكاية الرجل الرقيق والفتى الخنطى. ونبت آل الرمادى.. وما حدث حتى انهيار هاتى على اعتبار المساء وبوة صرعه وهذيانه المنذر بالطوفان!

— يخيك يا أحلى!.. ما الذى دفع بك الى «الفريق»؟

— ماذا أفعل يا أخت؟

«أراك قد فعلت يا يوسف! شهدت شهادة الحق فلم تساوّم ولم نطلم. فلا أحد مقدوره أن يحى عليك ثلاثمة.. أما صاحبك هذا

الذى تراه منساقا للجنون ويحزنك أمره فدعه لرب يتولاه.. واعد
إبعد يابوسف.. اذهب لعملك فى الجزيرة التى تأكل منها العيش
واترك اسكندرية بمن فيها لمن فيها.. مصيبتك «ياوله» أنك تساق وراء
قلبك . واتباع القلب ربما كان صوابا . ولكنه مفعم بالخطر فالجراح
لا تندمل . والزمن ليس طبيبا كما نظن . وها أنا كما ترى . جراحى
ما برحت تيزف ومازلت ألعقها حتى أدمتها . أنا أقتات بدمائى
يابوسف.. فابعد.. ولا تزدنى..»

أجهشت باطه بالبكاء وانكفأت الى مهجعها.. وأطبق ليل

معزوفة الفجر الشاب

يتخمر قيظ النهار الصبى فى حواشى الليل . ويتقطر على أديمها
بللورات من البدى المسكر . أحلى لحظات النوم وأجمل تهويمات
الحلم..

على الحنين ترصع كحبيبات ألق برقى يومض ثم يطفىء ليلترد
مكائها السمات صبح موعود فى أحشاء الفجر . ومن وعى الحسد
العائب يتسرب فى حنايا الخلايا المصطحة تحت قشرة الدماغ شريط
من صورة تندعى بلا انتظام ولكنها تشكل فى جوف الفوضى
قرارا يوشك أن يولد فى شرفة قصر الرمادى . وقفت هالة تواحه
شمس الغروب وتخلع علالة شفاهه تسقطها حتى وسطها . قات
له

— اعرض صدرى للأشعة فوق السفسحية فى شمس الساعة الأخيره
للنهار..

تحمل ثدييها فى كفها . تلقم أحدهما لرين الضاحك.. الذى يحتنى

ليحل هاتى محله . وتربت على رأسه بحنو . ثم تمسح دموعه التى
انزلت.. ثم تساقطت على زهور يحملها فى يديه . وعبدالرحمن
الرمادى يصرخ من حديق الشاطئ بلا صوت.. ويعبر بابا الى
سرداب مظلم ليخرج يوسف بعدها الى تلك الشرفة ذات القنديل
الأحضر.. وناسى تدعوه للاستلقاء معها ومع أم هانى . بينما
ترقبهم رحاب ضاحكة وترمقه بنظرات داعرة . وحين احتضنته
نانسى أدرك أنه يحلم . وساورته مشاعر الخيبة وعدم الاكمال .

ينفجر الصون من مكبر معلق بمخنة الجامع فيوقظه لأن تزامن مع
انتهاء الحلم . ففى العادة لاثوقظه أصوات الأذان لأن تكررهما اليومى
حولها مع صوت مرور الترام على القضبان الى ثوابت رتيبة
لاتفاجئ . . ولاتدبه! أحس بأن الرطوبة تبلل الفراش فقفز منه الى
الحمام . كانت المرة الأولى — ربما مد سنوات — التى يستيقظ فيها
ليلا . وهو يعرف قياسا على السوابق أنه لن يستطيع النوم مرة
أخرى..

اندفعت مياه «الدش» قوية باردة ليشهق فى اعتياد ثم يسلم نفسه حذر
تلك الدغدغة الناعمة عن التقاء الماء البارد بالجسد الحار . وكان المؤذن
يردد فى إصرار أن الصلاة خير من النوم . تذكر يوسف لحظتها انه لم
يزر ضريح المرسى أبو العباس منذ عامين تقريبا وأحزنه هذا لمواقف
حميمه كان تربطه بالمسجد وبابولوى شقيق الاسكندرية وقرر ان يصلى
الفجر هناك!..

قرب المقصورة لمح جالسا ييكى¹ هاله ان يرى حس العربى وقد
عسلت وجهه دموع تنساب بلا توقف وبعد ان هم بالاسراع نحوه

أحجم وقد أمره وأزع داخلني بأن يترك الرجل وشأنه.. لم يكن حس درویشا ولم يعرف عنه يوما أسرافا في التدين . كان يصوم ويصلى على قدر الفريضة دون تطوع أو تريد وحين قيل له أن على الاحس قد حول الطابق الأرضي من عمارته الحديدية الى مسجد وأنه اطلق لحيته بعد ان أدى فريضة الحج «السياحي» مع زوجته أماره وعمه «روصه».. ابتسم حسن بغموض وعلق ساخرا.

— يفعلها الاحسن والأجر على قدر النية والهدى من الله!

قرب باب المسجد المواجه للمحر.. جلس يوسف مترقبا طلوع الهاز وشحوب زرقة الفجر ونحوها الى ذلك اللون الليلكي يهت بهت بعد برهه لیسود ألن الرماد . كم أحب في طفولته ان يصحب اخاخ خيل عبدالبارى الشفقى الى صلاة العيد قبل الشروق وتلك الترييمات الشجبة لتكبيرات العيد في الكور الأصال . تنكسر الأصواء في الأجضان . تفتح العينين.. ثم تغمضان.. تأخذ تلك السنة من النوم ويركن رأسه على العمود البارد مواجه البحر ويمر بجانبه حس الغريب فلا يرى أحدهما آه . «شيء يتخلق في عمق العمق باس الشفقى . لقد جمعت شطر المحراب وقررت ان تفعلها » لم يكن وحيا ذلك الذي طاف بإعنائه البسيرة قرب باب المرسى . كان إلحاحا داخليا يخرج من غمر الرهبة والتردد ليخلق حالة استبسال عنيد طالما تملكك الحمقى والشهداء..

طلب من راما كوما كامالا من القهوة المعلية . وأغلق على نفسه د حجرة البرج وانكب على أوراقه.. وظل يكتب طول النهار . وفي المساء لقي رحاب عند «صوفى»..

— عيناك مثل كاسات الدم! ووجهك شاحب.. ماذا بك..؟
أخبرها انه لم يتم.. وأنه ظل يكتب طوال النهار..

«أتدريين ماذا كتبت؟.. القصة كاملة.. بأدق تفاصيلها.. حكاية الفتى الخطي مع بنت الرمادى . ومشهد مصرعه بالرؤية والمعرفة . وأقول هانى الكردى بحذافيرها.. اترفين ماذا ينقصنى لأحقق سبق العصر والأوان . شهادة أسمى إليها.. وسأحصل عليها قبل ان أتقدم بموضوعي لرئيس التحرير»

هل كان لسانه ثقيلا متلقما يفعل «المرتسينا» التى قدمتها لهما صوفى . أم هى قلة النوم؟.. أراح رأسه الى كتفها وهمس.. النوم يارحاب.. النوم..

.. اقتربت صوفى وانحنى على أذن رحاب تهمس لها ثم دست فى يدها المفتاح «لا أحد فى الشقة.. خذيه الى هناك»..

«أمر حلم الليلة الماضية يتكرر؟..» لم يكن يوسف ثملا.. لكن احتياجى الى النوم كان يؤرجعه على حافة رجراجة بين الانتباه والغفوة . وفى ركن بعيد من الحجرة المحرمة داخل العقل الباطن كان يعرف ماذا يحدث «الآن» بينه وبين رحاب..

نقطة ساخنة على خط المساء المثالي

لن يعثر له رفيق أبدا ما استدرجه اليه! «لم تكن هناك وسيلة أخرى سريعة يعرف بها عنوان وهاتف المقر الخاص لأسرة الرمادى — فلنقى له تلك القصة عن ضرورة ابلاغ عبدالرحمن باشا بحظر ماحق وحماقة كبرى ينوى هانى الاقدام عليها»
.. أثناء صوتها عبر الهاتف جافيا حذرا.. ماذا تريد؟..

— اذا كان دم زين العابدين إمام معنى لك شيئا فدعيني القاك!
كان الأسلوب فحشا اشائيا كان يراهن على بقايا غضب يساورها
ونقمة ظلت تبحث عن قصاص . طلبت منه ان يعطيها مهلة
وستصل هي به..

وفي الفندق ظل عمرو يراقبه والفضول يكاد يهتك به «السا
أصدقاء؟» لم لاتصارحني « ولأول مرة عامله يوسف بقسوة مهينة
شريرة «عجبا.. تريد ان اشاركك ثمرة جهدي واكشف لك
موضوعي؟» فازور عنه زميله مجروحاً.. وساعتها أناه الرنين المنتظر
كانت هي . حددت له المكان وطلبت منه ان ينتظرها وستوافيه بعد
ساعة!

. تدت وهي تدلف من باب مشرب ذلك الفندق البعيد الراض
على حافظة الصحراء — فتاة أخرى غير تلك التي رآه ليلة عيد
ميلادها.. أبدا لم تكن هي..! تحولت حفيذة الرمادي الكبير الى ظل
يرسف في كآبة ضافية . نحتت بشكل لا يصدق.. وعارت العينان في
الحاجر معتمة مظفة الا من نظرة نفلت في لحظات معينها بارقة بالم
حاقد وغضب مقيم لبقاربه تسامح او غفران.. وقبل ان تستقر في
مجلسها قرأت عينيه..

— تعجبين من سقمي ا صحتي هي العجب!
لم يفهم.. وثوفاً مستهما فأوضحت باقتضاب «بيت من قصيدة يغني
فيها وديع الصافي مع فيروز.» تذكر الأغنية فاعتذر في خجل.. بينما
ابتسمت هالة في غير مراة'
— تعرف أنني حامل؟..

أدله وأريكه في أن ان تتعامل معه بهذا الاعتقاد والزلفة رغم ان كل
ما بينهما مكالمة هانفية . ولقاء سابق في ليلة القمر المخوق يذكروها
ولا تتعرف هي على ملامح تذكرها منه «لعلها كانت تنتظر! لمسألة
النسبة اليها أنك صحفى.. وهي تريد صحفيا»..
— الخنثى في احشائي هو ابن زين العابدين¹. وحاسر يعرف الكل
يعرفون..

وشرت ضحككتها العصبية فجأة لتسأله متجهمة: ماذا تريد؟
شرح لها ما يريد.. ثم ضغط أمامها على زر تشغيل المسجل.. وانساب
كلامها متصاعداً كأننيار حوى يتحرك أولاً على أرض مستوية ثم يصل
الى قرب المسقط فتضاعف سرعته ويهدر ثم يتدفق منفجراً وهو
يسقط حيث لا حساب ولا حذر ولا عاصم من الفرق!..

اشتعلت الأمسية بعاصفة النار! لم يعد جو القاهرة وحده مصدراً
لللهيب وانهار الانفاس.. حين انزوى يوسف في حجرته وراح يفرع
محتويات الشريط.. آلاف النقاط الميكرو سكوبية تحت جلده تتر وتطن
كأنها مولدات كهربائية «رباه . أيمكن ان يكون الأمر حقيقيا الى
هذا الحد. أم أنه مجرد حلم يذاعبه عند حافة الوعي؟ هل التقى
حقاً بحفيده عبدالرحمن الرمادي ؟ وهل هي حقاً صاحبة الصوت
المسجل على شريطين كاملين ؟ وهل ذكرت كل هذا فعلاً؟ ألا
تخدعه أداه؟ ألا يمكن ان يكون سادراً في الوهم؟ كان يسمع عمن
يقرص نفسه ليصيح اذا كان نائماً لكن لا . انه في كامل وعيه
ويقلته وهاهو القلم بين أصابعه يتحرك محموماً على الورق ولدة
ساعات طالت حتى انتصفت الليلة.. خرج بعدها الى «الرف»..

نسمات الخريف الهاربة من ربة الاحتراق في مدينة لم تعد تنفس
انقطع عنها الأوكسجين فازرق جلدها تتلأأ عبر مسارات سرية
لكنها تصل في النهاية كهمة اعتذار

— أقف الآن يا عمر على عتبة قد تنقلني الخطوة بعدها الى محد
يرفعني للأعلى أو تسقطني في بشر بلا قلاع ولا نسألني عن
تفاصيل.. فقط أشر على ما أفعل.. هل اذهب بقصتي الى فوزي
الشماع أم اقدمها الى منافسه الآخر في دوائر القوة الصحفية؟

ثار عمرو الكاشف بلا مبرر «ماذا تخفي؟» انها نفس القصة! حدوده
فتاك الخطي وبنت الرمادي على من تنلو مزاميرك القديمة الجوفاء؟
العتبة التي تقف عليها ستفوق في رمال متحركة لاتعرف اسرارها
عدا!.. اذهب بموضوعك الى الشماع أو الى الحن الأزرق أو اسرح
به في سوق «الكاتب» الذي تسجبه دوائر القوة الصحفية.. لعل المحد
الذي يرفعك الى الاعالي يتظرك هناك على سن خازوق» كان مزاج
الكاشف عكرا — وأبه في الفترة الأخيرة — وعن ليوسف الذي يحلم
بالآتي ان يثير غيظه فهمس في رصامة..

— اغفر لهم يا أبتاه فإنهم حمقى لا يفقهون!..

— نعم ياروح خالتك؟ هل احتلط عليك الأمر فصرت عيسى بدلا
من يوسف؟ اشخر لك؟

صحك يوسف وصالحه وأحبره أنه يود ان يتفرج الليلة على جلسة
«البوكر».. كانت مكافأته لنفسه قليلة ومتواضعة.. ولم يرد الليلة ان
يختلي بنفسه حتى لا يواجه ما فر منه مغمسا في اعداد تحقيقه
الصحفي! كان ما حدث بينه وبين رحاب في بيت صوفي في كارة

كل المقاييس وهو لا يريد ان يناقشه ولو حقبة فمأذا يمكن ان يفعل
حيال بكائها وانهارها والقصة المرعبة التي روتها له؟ وما الحال التي
تنتهي اليها مشاعره اذا فكر في الأمر؟..

حول المائدة المستديرة المعدة خصيصاً بقطعة الخوخ الأخضر.. وعلب
«الفيش» ومجموعات أوراق اللعب الجديدة.. النفوا أربعة وحاسمهم
معم الصرفي بينما احتار يوسف مقعدا خارج الدائرة وفي المساحة
الفاصلة بين كسفي عمرو ومنعم لتسبح له مراقبة أوراقهما.. كان
يسمنع بمراقبة هذه اللعبة بالذات.. ويشغف متابعة الحالة الازعالية
لدى الجميع وقد حرص دائما ان يتعد في جلسته عن آحين يدون
نومهم واعتراضهم على ان يراقب أوراقهم شحضا خارج اللعبة..
مسألة تشاؤم ومداعبة للخط كما يقولون!.

ويقولون ايضا ان لاعب «البوكر» الماهر هو الذي يتحول وجهه الى
قناع حامد لايشي بأي تعبير ولايم عن أي انفعال ليستطيع ان يمارس
به حذاع اللاعبين الآخرين أما اللاعب الفذ فهو الذي يتفوق في
خداعه الى درجة ايهام منافسيه بأوراق ليست في يده.

ولكنك تلك الأوراق الراححة فعلا ياس الشفقي! معك «كنت
روبال».. مجموعة الفوز الكاسح الذي لا يمكن تحديه

مال رأسه على طهر التقد وقد عليه العاس ومن ير حفيه خايته
صورة فوزي الشماع وقد راحه مايقرا!..

انتصاف دائرة النهار

ولعوري الشماع كلمات ترزع في صدارة أقواله الماثورة التي يلقيها
في كل ماسة للمحررين والصحفيين في جريدته! يقول لا فص فوه

ان نشوب الحرب العالمية الثالثة أو شروق الشمس من الغرب احار
لاتبرر افتتاح مكتبة - قدس الأقداس - بدون موعد سابق او
استدعاء شخصي منه لهذا فقد ظل فاعرا فاه منصعقا.. وهو يفاحا
اندفاع يوسف الشغفي من باب السكرتارية ليصبح أمام مكتبة يكاد
يلاصقه. وخلفه يدفع الحرس الشخصي مع طاقم السكرتارية
بأجمعه..

- طوال ساعات الصباح وأنا أحاول مقابلتك بالطريق الرسمي
لكنهم أصموا أذاتهم دوى فلم أجد بدا عن افتتاح محرابك ولم
أكن لأفعل لولا ان الأمر خطير تتجاوز خطورته كل خيال.
أحسن فوزي الشماع لأول مرة بالارتباك شيء ما في بهجة هذا

«الولد» يجمعه من التكيل به وأصابه هذا ركة التقطها يوسف
- قبلة في قضية عبدالرحمن الرمادي!

وساد صمت بدا فيه هسيس المكيف كأنه الصبح بعينه. وتجدت
نظرة الشماع حلف نظارته السمكة. وعبرها ظل رمادي مرعجب
ولكن أصابعه أصدرت أمرا فهمه الآخرون على الفور. وحين أعاد
الباب.. لم يتظر يوسف ألقى بأوراق التحقيق على المكتب
- اقرأ بنفسك ياسيدي!..

حلج فوزي نظارته وراح يمسحها وهو يحرق في وجهه بوسد
الذي نصب عرقا رغم برودة التكييف. وبدا وجه الرجل بدو
نظارته مختلفا تماما! فحول عينيه تلك الجيوب التي تشير الى علة
الكند واتساع المحجرين يرسم صورة ماحن قديم أما ما توح
الظرة فهو الملل المنسوب بالعتاب الغاصب.

- ماذا أقرأ يا عقرى؟ اترك قد استنطعت ان تصع الرجل في حيك
بهذه السرعة م الذي فعلت على وجه التحديد جبرنا متى ستفيد
من بركاتك وتتبع خطاك!

- لم تفهم انقصد على حقيقته يا اسناد أيا لم أكتب موضوعا دعائيا
للرجل.. بل اعتقد انه سيجن جنونه حين قرأه..

ثارت الشكوك في صدر الشماع وتناول نظارة القراءة وبأصابع
متوترة عصبية تناول الأوراق لم يكن فوزي الشماع في بداياته
صحفيا رديئا ولم يكن رجلا سيئا كان فقط كيانا قابلا للتشكل على
أى صورة تحتمها «الظروف» كان في العهد الشمولى من صحفى
الدولة المرسى عنهم في مكاتب الاتحاد الاشتراكي وكان محسوبا
على واحد من الأسماء المقربين لعبدالناصر شخصيا. وفي عموام
ولاية السادات كان من بين بطانة المريدس وجعل من تاريخ قديم

عمل فيه بمكتب السادات حين تولى أمر الصحافة لافتة يزدان بها
حييه ثم جاء العهد الحديدي فأصبح بعد رحلته الشهيرة الى باريس
وأدى خلالها خدمات حلية للدولة واحدا من كبار الصحفيين الذين
يحطون قمم أهم الدور الصحفية. ولا يدرى أحد متى بدأت
الهمسات تتناوش سيرة الرجل. وعلاقته وارتباطاته الوثيقة مع كبار
رجال المال والاقتصاد وحين ارتفعت أصوات الهمسات لتصبح
لفظا يصلى الأسماع بقى امر واحد لا يحتل عليه أعداؤه
وأصدقائه..

- هو صحفى «عقر» و«جورناجي حريف»

ولاشك ان الأمر بدا محيرا هذه المرة فوزي يعيد قراءة التحقيق

للمرة الثالثة وهو يغالب انفعاله الذى ظهر جلبا لعينى يوسف الذى راقبه متابعا دون ان تطرف له عين.

وفحاة أراح الرجل الأوراق بكلتا يديه حتى القاهها ام حذاء يوسف المائل أمام المكتب كالمثال..

— ماهذا الهراء الذى سودت به الصفحات وجئتى به إليها النافه؟
«تفكيرك» موضوعا هكذا وبكل صماعة وبدون اثبات او توثيق للمصدر؟

كان يوسف يكاد يوقن بأن فوزى سيقول ويسأل . ويكاد بنفس الحروف ان يستدل على صدق حديثه.. وكان مستعدا..

من جيبه أخرج شريط الكاسيت ولوح به أمام عينى الشماع!

— أتعرف ماهذا باريس؟..

— أراه جيدا فلست أعمى..

— انه اعترافات بت الرمادى.. كاملة.. حتى الثروة وهمسات ما كان

يجرى بين جدها وبين خلسائه. ونفاصيل تحالفاته واتصافياته واسماء من وضعوا فى كشوف نعيمه الأرضى..

. اقترب يوسف من المكتب تحطمت كل الحواجز. وتلاشت الهالات.

— هى نسخة مهداة اليك ياسيدى. لتعيد سماعها مرة بعد المرة وعذا سأرى تأثيرك الحاسمة على صدر الصفحة الأولى «تنشر»
اليس كذلك!

ومرت سحابة اليوم.. وفوزى ملازم مكتبه أمر بقطع كل الاتصالات ومنع أى كان من الدخول..

.. وراح مرة بعد مرة.. يسمع ويعيد سماع هالة لرمادى..

. «المحونة! لو ان جدها عبدالرحمن هو الشيطان بعينه لكانت أرفق به من صفاته التى ذكرتها بحدة جارحة.. ولماذا أفشت كل ماتدفقت به من أسرار.

ما الذى تفعله الآن يا شماع؟. وأى عاصفة تحلق فى أفقك؟! هذا الولد يوسف يحتفظ دوما شك بنسخة أصلية من أقوال الفتاة! والتحقق بهذا الشكل قبيلة هائلة لا يمكنك ان تتجاهله ولو ذهب به الفنى الى واشنطن بوست بجمالة قدرها لنشرته وعلته ملبونيرا أى واشنطن بوست يافوزى؟ عجزت وعجرت وكل بصرك كما كنت حاسنك القديمة لا تدع الفنى بفلت الى حيث تتناوشه الأضواء والاعراءات.. ادفع به . ضعه فى فوهة المدفع «أطلق سبانا طويلا متنوعا.. قال.. أم أى اعتبار آخر..»

أنشطار الدائرة

فى الهاتف جاء صوت هانى خائرا ضعيفا يسأل: أحقا ما تقول؟.. وأكد له بقوة . «وأمهلى الرجل الى الغد.. ولعلك تقرأه فى نسخة اليوم الثالث».. ساد صمت طويل حتى طن كل مسهما ان صاحبه قد انهى المكالمه..

فى الاسكندرية كان هانى راقدا فى فراشه يماهى من حمى هاجسته صباح اليوم التالى . وفى فندق وسط المدينة كان يوسف عاكفا على نقل نسخ أخرى من شريط هالة .

أما فى مكتبه فقد توصل فوزى الشماع الى ما ظنه حلا عبقريا. سيأمر بنشر التحقيق. فلا مناص! ولا يوجد صحفى بقيت لديه ذرة

من احترام النفس وحب المهنة يمكنه ان يتجاهل مثل هذه الخطة وفي الوقت نفسه يمكنه تأمين جبهة الرجل الكبير.. بدت له الفكرة براقة قادرة على حل الاشكال. ولم يضيع وقتا بعد ثوان رد عليه الرمادي. وعندي ما أريد ان تسمعه. والأمر خطيرا - يمكنني ان اسمعه على الهاتف.. - هاهو..

ألا تعلم أيها الصحفي الكبير النابه أنك فعلت أمرا اذا؟.. ألم يساورك الشك لحظة في أنك تدوس شرف مهنتك بقديمك؟.. هاجمه الخاطر كلدغة ثعبان جعلته يقفز في مكانه «لعلك أيها الصحفي النابه الكبير.. قد أصدرت الآن حكما بالإعدام على حالة حسين الرمادي.. ألم تفعل؟»

«... دوائر الحمار»

مدار الشمس العجوز

حين رأت حالة فوزى الشماع يغادر مكتب الرمادى الكبير خفتت
لى صدرها دقة طربه ادركت ان يوسف الشفقى قد سدّد الضربة
وأن الشماع هرع للجد ينذره وحين خرج الرمادى الى حيث
تجلس رآته شاحبا متهدل الكتفين بنوء بأحماله القديمة وكأنها لم
تسقط الا اللحظة.. لم تره طوال عمرها مثلما تراه الآن.. مثيرا
للشفقة والرعب معا.
— لماذا فعلت هذا؟..

بدا صوته وكأنه يصدر عن شخص آخر.. بعيد.. خلف الجدران..
أردت ان تضحك فلم تستطع..
— الشماع دمية فى يدك! إمنعه من النشر..
جلس على مقعد قريب وبدا كصديق يريد أن يشاور ويلتمس
النصيحة..

— لا يستطيع! الفتى ابن الشفقى وثق موضوعه ودعمه بتسجيلات
صوته وإذا رفض الشماع أن ينشر له فسيجد آخرين يتلهفون
ويجزلون له العطاء!..

صمت لحظة حتى بدا وكأنه راح فى اغفائه أو أنفصل عن وعيه
وحين أيقنت أنه سيطل صامتا وهمت بأن تغادره هتف بالسؤال مرة
أخرى: لماذا فعلت هذا؟

— وفاء لحق الرجل الذى أحببت!

— نتقمين للسافل الذى استباحك والذى فيك بدرته سفاحا؟

— تغضب للأخلاق ياشيخ الصالحين؟ تتحدث عن الاستباحة
وتنسى ماوطأت من أرواح واجساد وأعراص؟ تتحدث عن السباح
وأنت تسافح الشياطين ليلا وتخاذلهم نهارا؟

.. رفض الرجل ان يصدق ماسمع.. وقرنى ذهنه انها تهذى أو
تقرأ فصلا فى كتاب.. فبدا رده وكأنه نطق علوى يفارق تخوم
الوعى. (لا استطيع أن أقتلك! ولا استطيع ان امسك بشر. انت
لم تكوى أبدا حفيذة.. كنت رهترى الوحيدة التى تبرعمت
واشرقت فى مسامى الغارب.. كنت البنت التى تمنيتها فلم تحي
فكرت أخويها.. حتى إذا انجبها اصغرها نال مغفرتى لمولده
كان مولدا تمسا.. وكان..)

كان الرمادى يسبح فى ركود بركنه الاسنة. ويضرب بالمحذاف
للتفافز الاسماك الميتة.. خيل لهالة أنه لا يد يعانى من خرف ثمارين
عاما تهذل على كتفيه (أبوكى وعمك لم يكونا من صلبى! فانا
عقيم. لكهما ولدا فى بيتى فأصبحا ولدى الحياة فى المنقول
سند الملكية.. هاهنا.. والعرق دساس ثرين الآن جاسراس
عمك. ذلك النغل يرحب بأن يتزوجك وفى بطنك جنين عشيقك
ويرحب بأن ينسب اليه هو! اتعرفين؟ قد بظن الناس انه نوع من

الحسة والعدم الرحولة. ولكنه ظن أحق فهذا التسامى فوق
مشاعر العبرة والحقد وشهوته التملك هو قمة السمو. هو انسلاخ
عن غريزة الحيوان واتحاد مع شفافية الروح وانعتاق الجوهر. فى
شبابى روح اعدائى إشاعة تقول أننى أصادق عشاق زوجتى. وأنها
تضاجعهم فى وجودى! والواقع أننى لم أعن كثيرا بتكذيبهم.
وفعلت ما هو أهم واجدى. أعريت زوجاتهم جميعا ثم كونت
منهن شبكة دعارة. والتقطت لهن صورا وأفلاما خلال ممارساتهن
الفراشية وبها سحقت هاماتهم ودعست أنوفهم فى الرغام.. هاهنا
.. هاهنا).

هل نام عبدالرحمن الرمادى أثناء سباحته فى بركة ذكرياته؟
نعم أخذته سنة من النوم.. ترك فيها تيار ذكرياته ينداح على لسانه
ويختلط فيه الضحك بالحكى بالغطيط. وتفرغ للتفكير فيما يجب
ان يفعل؟..

«فلتكن هذه تحفك الاخيرة يا عبدالرحمن.. فلتكن قمة ابداعك..
على حبهات ثلاث سترسل قواتك الضاربة. أما الخطوة الميسانية
فلابد أن تنضحها على نار هادئة.. ثم قليلا. ثم انهض لتتناول
كأس الشفق.. ثم وجبة المساء. وفى السهرة تلتقى بحوارى
العشاء الأخير».

. دعت هالة من حملوا الرجل الى فراشة. وتحت المقعد الذى
غادره رأت بركة صغيرة من البول تفوح منها رائحة جيفة منتنة!
.. كانت هالة تشم دائما روائح عربية فى كل بيوت الرمادية! وعم
العتور التى ترش فى الأرجاء ليل نهار.. فمعها تتسلل دائما تلك

السحابات الثقيلة تكاد تلمسها الانامل لروائح ملابس داخلية بصمغها العرق وافرازات تسلحات الخلد في خوف الثنيات الدقيقة. (في سن الثانية عشرة فعلها معها ذلك الرجل الذي حاءوا به ليعلمها اليامو.. كان يحيطها دائما بذراعيه حين ينظم لها وضع اصابعها على مفاتيح العزف وكان يلتصق بها وتحس بأفاسه اللاهثة اللاهية تلسع خديها ورقنتها يسما يرتطم عضوه بعجيرنها في إجاح. حتى كان ذلك المساء. الذي كانت ترتجف فيه كل نامة في جسد الرجل وتخرج من بين شفثيه فقاعات لبنية ثم يفتح ازرار سروالة.. كانت المرة الاولى التي ترى فيها «عضو» رجل مكتمل. وفزعت لكن فصولها غلبها.. ثم شاعت في الخو تلك الرائحة التي زكمت انفها كبخار يخرج من السروال المفتوح (عرفت فيما بعد ان تراكم السائل المنوي دون تعبير السروال.. مع تسلحات مايب الصخدين تنتج هذه الرائحة). وتقنيات هالة يومها والتقصت بأنفسها تلك الرائحة فلم تنج منها الا خارج بيوت الرمادي ا وكم كرهت تلك البيوت وكرهت كل قاطنيها..

تحسست بطنها في حو أحست بذقن زين تنفرس في كتفها كما كان يفعل حين يسلسل ليماجنها ويمرغ وجهه في شعرها ويداعب بشفثيه شحمة أدمها فتتنقص وتستدير اليه لتلتصق بأحضانه وتهمس قبل أن تلقمه شفثيها «أعصرني حتى تحيلني الى شراب ذائب في فمك ينسكب من شديك الى عنقك الى صدرك دعني اتحلل مسامك أصبح بعصا من سبيج أديمك» عد بازين لا تكرر وهما.. لا تلبخر حلما.. فبعصك يسكنني.. وماؤك روي ارضي

وعشى بيمو مخفرا ويتفرع في شرايين يورق ويزهر ثم يثمر.. آه كم أخشى يا حبيبي أن يفعلوها قبل نضوح الثمرة.. فتعطب وتوت قبل ان تنفصل عن فرعها. وبكت هالة كان يساورها ذلك الهاجس الذي لمحت بدره في عيون الرمادي.. هاجس يعيرها بأنها حين تحدثت مع يوسف الشفقي قد حذلت حبلا يكمه ان يشق الرجل المعجوز ولكنه لا بد أن يلتف اولا حول عنقها!

وحول سريره. كانوا قد جففوا بلله وعبروا ثيابه وضمخوه بكثير من العطر. والتفوا حوله. ينتظرون النطق السامي (لم يكن فيهم من أحب هذا الشيطان المعجوز حقاً. وليس مهم من لا يتمنى أن يشهد مكنا ملثما يساق الى قبره. ولكنهم يحضعون لعبيد اورثهم أجيال الرق والنحاسة ذلك الاستسلام القدرى لنزوة النحاس وغلمة السيد).

راقوا يؤذى العينين بدوران مليونين بحياة تنافر في فظاظه فاقعة مع ما يحيط بهما من جفون منهذلة وحلد ميت مترهل يكاد يتحلله دوده حتى قبل ان يتحلل..

تاعوا حركة شفتين يحرر منهما الكلام واضحا جذلا كأن شابا فتيا يحسبن في حوف الشيخ الفاني! «هالة تتزوج جاسر غدا» تسمعون؟ غدا وليس بعد عد في بعد الغد يسافران ليقبما في أي مكان العالم لا يعودان منه الا بأمرى أما بعد. هناك ثلاثة يجب ان تعدوا لكل مهم سكة من سكك الندامة حيث لعودة. ابو الولد في عسريال وذلك المحنت في لوران.. ثم الصحافي ابن الشفقي في داير البحر..»

خط الاستواء الكاذب

نظر فوزى الشماع الى الصفحة التى حوت «تحقيق يوسف الشفقى عن فاجعة الشاطئ المخملى.. غصارت مارينا تحسف القمر وتفرق الفتى العاشق.. تفاصيل الخريمة على ألسنة الضحايا» وساوره الاكتئاب وهو يتأمل الصور الثلاث.. زين.. مدرس الجامعة الصريع.. وهالة حفيدة الرمادى.. وهانى.. استاذ الجامعة وشاهد العيان!

كانت «البروفة».. وأعضاء «الديسك» الذين استدعاهم على عجل يتبادلون النظر فى صمت.. وهما يتابعون الشماع أثناء اكتنابه يضع قرص فوار فى كأس الماء ثم يجرعه وينهض ليقف بجوار النافذة العريضة المطلّة على قمم المباني فى الشوارع المحيطة يغلفها ذلك الضباب الترابى الكالِح.. وخط النيل يبدو كما كان دائما.. رازحا تحت ثقل مجهول.. يغيب فوزى بناظره عبر النافذة وقد تقطب جبينه فبدا اكبر سنا مما هو بسنوات عديدة.. ثم استدار اليهم بوجه مرهق ونظرة كابية:

— اطيعوا! بالصور كما هى ..

كان يعرف انه رغمًا عنه قد خسر الرمادى الى الابد.. وقد قرأه فى الهاتف المانشيتات.. وأستمع الى سبابه ولعناته وتهديده بأنه سينسف نفسه مع الصحيفة بأكملها ان هو سمح بنشر صورة الفتاة!

«حاولت ياباشا ان امنع الصورة.. لكن الشفقى معه موافقة كتابية من حفيدتك على نشر صورتها واسمها بالكامل فكيف لى وأنا من

أنا فى عالم الصحافة فى البلد اتورط فى خطأ مهنى جسيم وامنع الصورة التى توثق التحقيق وتجعل منه تلك القنبلة؟»

سبه الرمادى بلفظ مقدع تناول امه فاضطره الى الرد.. انهيارت الدنيا واطبق الطوفان والولد المأفون يوسف يختال متتشيًا كالطاووس!.. حسنا.. لن نهأ بما فعلت يابى الشفقى! نظن انك تحتمى بما سجلته على الشريط.. سوف ترى.. ومع ذلك..»

لا يملك الشماع نفسه من اعجاب دفن بالولد.. «لو افلت بها فسيكون صحفياً له شأنه..» رمقه بنظرة يتجاور فيها الغضب والاشفاق ثم وقع له على إذن بمكافأة استثنائية مجزية!... وعند محطة «السوبر جيت» ودعه عمرو.. كان هابساً..

— لعلك لم تزح الحجر عن حجور الافاعي يابوسف!

— أرجو ان اكون قد فعلت يا صاحبي! أيعزتك ذلك؟..

— تعلم أسي احبك! وصديقك من صدقت.. سأخاطر بظن قد يخالط ويصورنى لديك حاسدا او شائنا.. وأقول لك أنك ترقص الآن على كف عفريت أخرحتك من القمم.. تظن انك حققت نصراً صحفياً مؤزراً يضعك فى مقدمة الكبار.. ربما ولكنى أخشى ان لا يطول عمر الانتصار الرمادى واصرايه ياشفقى ليسوا من عوام المحرمين وليسوا مجرد أسرة نافذة الجاه قوية السلطة والنفوذ انهم «الوقت» و«النظام» و«القانون».. مثلث قوة لا يضاهيه منافس.. فاحذر لنفسك ولكل ضالع معك!

.. الحافلة السريعة تنهب المساحة السوداء وبداخلها يعرض على «الفيديو» فيلم يمتلئ بمشاهد الضرب ومعارك العصايات.. أراح

يوسف رأسه لظهر المقعد وحاول ان ينام تذكر اخر ماجرى من حوار بينه وبين الشماع..
- أريد ان اتابع الحملة!

ابتسم الرجل القديم تلك الابتسامة التي تسمر عن اسنان صناعية منتظمة شديدة البياض وحذجه بنظرة عابئة كأنها صمعة مزاح. بل خيل ليوسف ساعتها انه يرقص له حاجبيه:
- اذا تركوك تكتب فسوف انتشرا

.. من هم يا شماع؟ من هم يا عمرو؟ احقا لاتعرفهم يا بن الشفقى؟.. انهم «الوقت» و«النظام» .. «القانون».
أى سر فى التحديد الثلاثى؟ . الحرية . الاخاء والمساواة! .. الحق .. والخير . والجسمال . الله الوطن الملك! الاتحاد . والنظام والعمل! .. حرية واشتراكية ووحدة . الوقت .. والنظام والقانون! أكان الرقم المقدس ثلاثة؟ . وكان الشكل المقدس هو المثلث؟ والمثلث هو الهرم! وكان قبل الهرم اورريس .. وايزيس وخورس..

العدل يا وزير العظيم يا صاحب منصبة القضاء هؤلاء اولادك ينتظرون حكمك لتكون فى الأرض حياة. فاقم محكمتك واتصب ميزانك!

هرب الاسباط بكتاب الموتى. ولكنه سقط منهم فى لجة «حانى» فقادهم كاهن آتون الهارب من نل العمارة بألواح الشمس ليصنع لهم الشريعة! تهويمات العروب تحسد لك احلام القبلولة يابوسف حيث تمثلت آخر تجليات ذهنت المكودود فى تريمات الشماسة

المعد لمريم ويسوع والاب رأس الثالث وفى الكمان البشرى المعروف على حجرة الشيوخ رفعت فى مغربية رمضان «ابا رسول ربك» بك لأهبك غلاماً زكياً قالت «و... ينطلق مدفع الافطار .

تطقت الشمس فى الملاحات وتتكسر الغفوة فى أحقان يوسف ويسرى حذر يشومه الالم فى ساقيه وعضديه . آثار ليلتين كاملتين بلانوم

.. سمع بوق السيارة قبل ان يصع نفسه فى التاكسى والتفت ليحذر رحاب فى سيارتها تشير له مستدعية (من اخبرها بقدمه؟)
- رفيق قلب عليك الدنيا .. وحين توصل احيرا لربيلك عمرو فى نذلك بالقاهرة احبره أنك تستصل فى حافلة الساعة والنصف . قد ارسلنى اليك لاختذك الى كيبنة المنتزه..
- ولماذا لم يأت هو؟

- ربما كنت فى رأيه من تستطيع اقناعك بالانصات اليه!
عينك يابوسف حمراوان بلون الدم وهالات السواد حولهما.
الشحوب يصغ اديم وجهك . ماذا بك؟.. يقول رفيقك انك رنكت اكبر حماقة فى حياتك ارانى ذلك التحقيق المشهور يأسمك عن حادثة مارينا!.. ويسدو الامر خطرا.. سمعت منه ومن ابى الكثير عن جبروت آل الرمادى! حبيبي لا اريد ان يصيبك مكروه»

انصف الاخير من ايلول فى الاسكندرية! وطريق الكورنيش قد خلا منذ ليال الا من اسراب كطيور المساء.. تنزلق على حافة

فريق يعطره الشجس. ورائحة اليود المشبع بملوحة الاسماك الطارحة تتماوج في دفقات السمات المتسارعة تشير تحت اودية المواسم المختلطة نوعا من «رودة» خاصة تلسع بلا قسوة. وداحل حدائق القصر طلب منها ان تتوقف بالسيارة في معطف الربوة وحين فعلت همس يرجوها . دعيني اغفو على صدرك دقائق معدودة . وأحتوته بزرعها . تريح رأسه على نهدبها.. وأناه صوت عبدالوهاب من زمن لم يشهده «عند مجرى العبير من نهدبك» والعبير مسكر .. وطرف اناملها يلامس شفثيه فيتمتم أحبك وتغوررق عيناه.. ويذكر نزار «خبأت رأسى عنده وكأنى» بنام الطفل فيه . ونصحو الامومة فيها.. وتحمل ازرار قميصها.. تحي حمالة النهد تخرج الكرة البيضاء والمكبترنة وتسلمها لشفثيه..

.. حين ولدته الحاجة جازية لم يحن له ثدياها. دخل عليها واحد من اشقاء زوجها «فكبسها» واحبس اللبن في ضرعها . لم يدق منه يوسف الا حلى قطرة واحدة.. واراضعته خالته «رئيسة» على ابنتها «شوق» . رضعات مشبعات كثيرة فحرمت عليه.. وأورثته تلك الحسرة التي تساورت كلما لقي شوق ورأى قوامها الذي خرطه خراط البنات فأبدع تكوينه. قبلها مرة عابثا فهمست «ليستك مت جبوعا ولم تواخنى فى الرضاع» . فلم ينفرد بها بعدها

الدائرة خط منحنى

بحرق رفيق سيجارته العاشرة خلال الساعة الاولى التي قضاه

يسب ويلعن «أبوخاش» ابن الشفقى الاحمق الذى يعجرى بالمشوار نحو الدمار.. وحين توخلت رحاب ثار وطلب منها ان تتركه مع صديقه و«تغور» فى ستين داهية. فردت له الصباح صاعين وقبلت يوسف امامه فى شفثيه.. ثم انصرفت.

اعرف انها تنام معك فلست اعمى ولم أك يوما ساذحا.. ولكن هذا حساب اخر ابقيه لما بعد.. المهم الآن هو استدراك الخطأ ومنع الكارثة! انعرف ماهى مشكلتى معك؟ . أننى احبك واعترك اخى الذى لم تلده امى.. احمل نفسى مسئوليتك رغما عن ارادتى وارادتك.. لذا أريد ان اتفذك! فلتخلع ثوب البطولة الزائفة والاكتفوك به .. ولتنسبه الى الحقائق الصلبة التى تحيط بك! ماحتصار بابن الشفقى.. لست ندا لهؤلاء الغيلان الذين لن يتوانوا عن ذحك فى الصباح وسلقك فى الظهير والنهامك على المشاء! نعم لن يستغرق الخلاص من صداعك لديهم اكثر من يوم! لقد لظمت صدغى كالنساء حين قرأت الصحيفة. وتبولت فى لباسى حين سمعت صوت حسين الرمادى فى التليفون مشحونا بالوعيد والبعضاء ولايدع املا باقيا فى حيائك . هم يملولنك حتى موعد صدور العدد الجديد فى الاسبوع القادم كما وعدت قراءك .. فإذا خلا من المقال الموعود . وامتنعت عن تسليم الشريط المسجلة عليه اقوال هالة الرمادى للشرطة والنيابة . فقد اشترت عمرك. ليس هذا فقط . فهناك وعد اضمنه انا تعويضك عن خبطتك الصحيفة التى لم تكتمل بصحيفة اخرى تملكها من بابها.. وتكون صاحبها وياشرها ورئيس تحريرها وتأتيك منها حصيلة اعلانات تجعلك

مليونيرا خلال عامين او ثلاث.. هل تسمعنى يابوسف؟ مالك؟
يخرب بيتك .. هل تمت؟

كلا لم يسم يوسف استسلم فقط لطيف الحبل فى أدنيه
تحول كل كلام رفيق الجوينى الى طنين .. رغم انه فهم واستوعب
كل تفاصيل العرض.

من لى تلك السدوية العرافة التى قرأت كف الفتى الحطى ليلة
اختناق القمر؟ اريد من تخترق عيناه استار الظلمة وحجب
الغيب لترى عنى ايامى الآتية.. اريد من يجيب لى على السؤال
الدعز اكانت خسفة القمر ليلتها بشيرا ام بديرا؟ لعلها كانت نذير
موت للفتى الصريع فهل حملت نفس النبوءة لكل من شهداها؟
ام ترى الفتى كان القربان والاضحية بلك دمه ليعمد البشرى
للمحدودين . وات اولهم؟ فأنت من أحال دماء زين ودموع
هالة الى سطور ترصف طريقك الى الذرى؟

. فى شرفة «الكبيبة» المظلة على البحر تركه رفيق بعد ان وعده
بالتفكير فى الامر¹ وكان قد قرر الا يعود الليلة الى منزل الدابر .
يريد ان يبقى وحده .. ليفكر..

تناول هانفه المحمول وطلب الرجل الرقيق وحين رد عليه كان
يصدح كمصمور يقيظ فى الربيع..

— لم يحدثنى حسن الظن بك يابوسف¹ كنت اعرف انك ستفعل
.. انت البطل الحقيقى فقد اطبقت كفيك على الجمر وتقدمت
الى الجحيم غير هياب.. احبك!

.. صوت المتوسط يهدر .. وتسطخب امواجه .. وينشق صدره من

اطياف ترحح لترقص تحت ساء القمر البدر . ويتقدم من بينها رين
العائدين امام . مارال الفتى الخنطى يبتسم رغم مامر به من احوال..
ورغم قطرات الدم التى تتساقط من موضع الضربة التى صرخته
ينفص عن نفسه اعشاب الاعماق الطحلبية . ويجلس فى الجوار
ويسأل عن هالة! يضع يوسف الشريط فى المسجل ويسمعه
صوتها تنسال دموعه ولكنه لايفرط فى ابتسامته لم تكن هالة
تتحدث كما تحدثت من قبل .. كانت تغنى (بتحول الكلام فى
حضرة المحبين الى غناء.. الى ترانيل)

ويلفت رين نظره الى كروان يمرق صادحا.. وعندليب على سور
الشرفة بفرد . وقبرة تشدو فى حضن عش قريب.. اما البلبل فقد
استقر فى حوض الزهور التى غرست اشواكها فى قلبه لترتوى
وتستنبت بنس الورد الاحمر.

. ويقول الفتى الخنطى الذى اكتست حلتة بلون فخر لبلكى .
— الموت حديقة تسكنها الاطياف .. الموت جميل!

أيقظه رين الهاتف فى الصباح .. (الشرطة تبحث عنك يابوسف ..
وتبه عليك بالمثلث امام النيابة اليوم فى الواحدة)

. نفس الرجل محقق يبدو وكأنه يكره الصحافة والصحفيين
بشرع الجريدة امامه ويهتف

سأخراً «السنا اولى بصيذك الثمين ياسيد يوسف؟»
— هى مهنتى أحاول ان اتقنها .

— لماذا لاتتقنها وتساعدنا على تحقيق العدالة فى نفس الوقت؟
— لا ادرى كيف ..

— الشريط المسجل بحوذتك احد الادلة التى بشكل اخفاؤها جريمة .
وعليك ان تسلمه!

— الشريط توثيق لتحقيقاتى الصحفى ووجوده بحوذتى صمان لا
استطيع التحلى عه ولكن توجد به نسخة لدى رئيس التحرير
يمكنكم ان تأمروه بتسليمها..

كان المحقق يرمته ساخطاً . «انت من اجرى الحوار معها . وانت
من تأمره!»

وحين رفض باصرار امهله لثمانى واربعين ساعة بوجه اليه الاتهام
بعدها بعرقلة سير العدالة واخفاء الادلة وتوعده بأنه سيسعد كثيراً
بالامر بعنسه على ذمة التحقيق!

وفى الخارج كان الثلاثة بانتظاره . رفيق .. ورحاب
وهانى..

وقف هانى على الضفة الاخرى عاكف الحاجبين متجهما . بينما
ضربه رفيق بقبضته فى ذراعه مجبداً..

فعلت الصواب ..

— لم يكن هدفى ماتظن .. وسأواصل النشرة

ولدهشته ضحك رفيق ساخراً وهو يهتف .. سترى غدا!

ماذا ارى فى الغدا؟ وماذا يعرف رفيق غير ما اعرفه؟ . وهمست له
رحاب .. طوال الليل لم تقطع المكالمات!

أحسن شغل يرسب فى أمعائه^١ وتساؤل معلق فى فراع
الإحساس عن علاقة رفيق الحوينى بكل ما يحدث . (أحقاً يقتصر
الامر على دور الصديق المتلهف على حماية صديقه؟ وماذا

يكون غير هذا؟. اللعنة تمسك بخناقك وعقارب الوسواس
تزحف..)

عبر الشارع إلى هانى .. الذى كان حزينا أكثر منه غاضباً.

— لا نساء همى انت الآخر! لقد رفضت تسليم الشريط تمسكاً
بمبدأ مهني ولا علاقة للامر بأى مساومة مع الرمادى!

— لا اعرف عم تتحدث... وليس هذا ما يحزننى..

— فلننض معاً إلى حيث يمكننا الكلام!..

. وبحر النهار لا يمكن أن يكون هو نفسه بحر الليل .. وكلام
النهار لا بهمس ... وأشجان الليل تهدد آلامها على وسائد
من أمل فى صباح آت.. أما ١٩٠ أحزان النهار فيكشفها
الخوف من ظلمة الأرق والمجر والوحدة . وأكثر ما راعه ان
يرى الدموع تترقق دون ان تنفرط فى هاتين العينين المشرعتين
تحت حاجبين شقراوين (للمرة الاولى يلاحظ لون
الشعر...)

— ماذا بك يادكتور؟

— تعرف أن الجامعة قد فتحت أبوابها . والدراسة بدأت فى كل
الكلليات..

— أعرف .. وهذا ما يحدث كل عام.

— لكى لم أذهب فى أى عام مضى لأبدأ العمل وجدت نفسى
موقوفاً!..

.... موقوف؟..

ردها يوسف بلهجة من لم يفهم ورنه فى صوته تستنفه الامر

١٢- الخطوط الدوائر

لكن هانى يحملق فى امتداد الأرق البعيد دون ان يلتفت إليه..
ورما كان يخشى أن يحرك عينيه فتتفرط غلاله الدمع..

— اليوم كان موعد انعقاد مجلس القسم لتحديد المنهج للفرق
الأربع طلب منى رئيس القسم وعيناه تيرقان بومضات متشعبة ان
التقى أولاً بالعميد.. دلى معهم تاريخ حافل منذ عدت من اميركا
والتحقت بالعمل معهم.. احققهم واثارهم التفاف الطلبة حولي
وشعبيى التى تعدت الآداب الى باقى كليات الجامعة. اتهموى
مرة بأننى اعطى دروساً خصوصية.. ومرة بأننى ابيع الامتحانات..
وحين فشلت محاولاتهم حاولوا استقطابى وجرى الى مستنقع
الفساد الذى يجمعهم

. كنت وحدى مع ثلاثة من المدرسين والمعيدين زين من بينهم
نفوض حرباً شرسة معهم.

.. صمت هانى طويلاً.. ولم يستحبه يوسف.. أحس ان الرجل
يتأهب لسرد اسوأ ما فى الأمر.

. وجاء صوته.. مكتوماً.. مرخفاً.. كأزيز مياه تغلى فوق الموقد..

— ذهبت لمقابلة العميد.. واجهنى بشكوى مكتوبة حررها اربعة
طلاب.. يتهموننى..

اطلق زفرة حارقة قبل ان يكمل. يتهموننى بأننى شاذ . وبأننى
أراودهم عن انفسهم واحرضهم على الفساد!!

دائرة من فولاذ بارد

ماذا افعل يا صديقي؟ . هتف هاني وهو يشيح بوجهه وقد تورد
بياض عييه تحت غلالة من دمع ينترق و لا ينفرط! . وقبل ان
يفيق يوسف من هول ما اخبر به ليفكر في جواب على سؤال
الرجل كان هذا قد انفلت مبتعدا يكاد يجرى ..
في مرور صوفي لم تساوره الرعبة . جلس فقط امام رحاب وقد
التصقت ركنتاه بركبتيها وامسك بيديها في يديه . وحكى لها ما
قاله الرجل الرقيق!

... عيست ودكنت نظرتها واتى صوتها بعيدا .. غريبا..

- وهل ينكر؟ ..

- من ينكر ماذا؟

- صاحبك .. هل ينكر التهمة ام يخشى الفضيحة؟

لم يثر عليها طوال سى علاقته بها . فكانت تلك هي المرة الاولى
«كيف تجرؤين على مجرد السؤال؟ كيف تصممين بيرة
صوتك هذا الشك المقيت؟».

انفص مبتعدا عنها ذهبت تستوقفه وتقسم له انها لم تقصد ما فهمه

ولكن مراحه كان قد تعكر بلا امل فى تدراك ما اندفع اليه تركها ولم يلتفت لنداءاتها التى لاحقته على الدرج . وحين لفحت وجهه تلك الريح الساردة التى تصفر فى ذلك الشارع الصغير المتعاند على طريق الكورنيش وشارع الترام سرت لها فى حسده قسمة ريرة اندرته باقتراب النوء، اما السحب الحاسية التى حجببت مغرب الشمس فقد بدت قريية توشك على السقوط . وفي احشائه آله تقلص مباعث «هذه الليلة فى الاسكندرية لا تبدو على ما يرام . وربما كان من الافضل ان يهجع مكرأ فى منزل الدايير...».

على باب الشارع عند «القمة» لقيه على الاحسن . وبدأ الامر مفاجأة تحمل فى ثناياها شرا مستظيرا .. تسمر امامه هاتفا .

- على ! ما الذى رماك على الدايير ؟ .. الحاجة جازية؟

- امك بخير يا يوسف ! .. انه حسن الغريب .. الشرطة ألقت القصص عليه منذ ساعة .. فتشوا عرفتة فى السيت فوجدوا «ترتين» حشيش تحت مرتبة السرير !

يا ولاد الحرام حسن الغريب حشاش اى نعم كذلك سيد المرسى وكل رجال العائلة والشارع والحيى والبلد بأسرها لكن ترتين؟ حسن لا يتأخر فى الصنف وعمره ما حمل من البضاعة اكثر من قرش أو قرشين بكثيره أوقية.

استغاث رفيق الجوينى الذى احضر محاميه وصحبهم الى الكراكون.

جاءوا بالغريب مكمل البيدين ..

- ما الذى حدث يا حسن؟

- اخبرنى انت يا بن والدى .. فأنا لا اعرف .. ورغم اننى «حشاش» قرأى كما تعرف إلا ان عيسى لم تحتلها عمراى هذه الكمية مرة واحدة . ولا اظن مقدار ما عمرت به نافوحتى طوال عمري يصل الى ترتين محالهم لكن امرا غريبا قد حدث فى صندوق سيارة الشرطة الذى رموى فيه بعد القبض على ركب الى حورى ذلك المحبر الغليظ ولكننى فى حنبى وهمس فى اذنى خلى رين العابدين ينفعك من بطلع زين العابدين هذا لا اعرف.

اطبق الليل على منزل آل الشفلى فى دايير البحر . يلفه السكون ويرين عليه حرن داهل لا يصدق . الحاجة جارية نامت ودموعها على حدها بعد ان حقنها الطبيب بمسكن وباطة على كبستها الاسنامولى تنهه بغير انقطاع وتمحط وقد ربطت رأسها بمدبل الصداق (مدبل له حششان فى طرفيه اعطته لها امرأة من ديو العممى) واما نجوب ارحاء المنزل بلا هدف وكأنها تبحث عن شىء مفقود اما سيد المرسى وعلى الاحسن فقد اهمكأ مع اهل الدايير بساهرين على مقهى «الزلبانى» يتحادلون فى الخبة التى نصبت بخشب ابليسى ليقع فيها حسن الغريب.

وفى حجرة الخلوس جلس يوسف فى مواجهة رفيق .

- انت تعرف الغريب احسن منى يا بن الجوينى هل يكذب؟

هز رفيق رأسه نافيا بقوة . «الحشيش مدسوس عليه» والكلام الذى قاله له المخبر لا يعنى إلا احتمالا وحيداً .. وانت تعرفه.

- وانت ايضا تعرفه يا بن الشفقى .. ولطالما حذرت .. هل قرأت صحيفة الغد؟ . اى كان فى القاهرة واتى بها معه .. النائب العام امر بحظر الشر فى قضية مصرع زين العابدين امام .. يعنى حضرتك لن تستطيع مواصلة الكتابة .. مبروك.

- هذا اذاً ما كنت تعنيه فى الصباح بعد خروجى من مكتب النيابة ما الذى تعرفه على وجه التحديد يا رفيق؟ ما هو دورك الحقيقى فى المسألة كلها؟ .. اعرف ان مصالحك ومصالح ابوك التجارية هما فى الاسكندرية كلها من بطن الرمادى .. واعرف ان ارواحكم بيده . ولا حول لكم ولا قوة اذا تخلى عنكم أو غضب عليكم . وانا افهم هذا واستطيع ان التمس لكم فيه عذرا .. فقط اريد الحقيقة.

مرت سحابة ثقيلة على وجه رفيق . وبدأ كمن يريزح تحت ثقل باهظ..

- اى حقيقة يا يوسف يا شفقى؟ الحقيقة مائلة امامك تكاد تخزق عين الابعد منذ اللحظة الاولى . ولقد سبهنتك وحذرتك ولكنك كنت تراهن على سراب احمق .. من تكون لتناصب آل الرمادى العداء وتحاول ان تحقق شهرتك كصحفى على حسابهم؟ ها انت ترى ما سوف تجنى!

. ظل يوسف صامتا يسائل نفسه «أحقا هذا هو رفيق؟ . اذاً لحق على الارض الحراب' ولحق عليك الخسران المبين . ولكن فلنلق الحسرة داخلك الى حين . ولتؤحل الحساب والعتب . ولتلق حاسماً نأى توق لمعرفة الدور الذى يلعبه رفيق . والتساؤل عن مدى تورطه فى قصد الخيانة .. الآن لا يهم إلا مصير حسن الغريب

- فلاكن كما تقول يا رفيق .. ولكن حسن الغريب .. الا يعنى لك شيئاً؟

اطرق رفيق مبتسماً .. وراح يزفر ويضرب فحذيه بكفيه ..

- ماذا باستطاعتى يا بن الشفقى؟ .. اخبرنى .. المخدرات تم تحريرها والمحصر قد تحرر وحسن سيرسل الى النيابة فى الغد!

- باستطاعتكم كل شيء يا رفيق! ..

- تحدث بضمير الجمع عن من يا يوسف؟ . اتعدى واحدا من رجال الرمادى؟ . ربما كنت اتعامل معه وربما كما قلت ترتبط مصالحنا به . وربما كنت اريد ان اتقرب اليه بالضغط عليك ولكنك لست متأمراً يا بن الحاجة جازية!

فى حجرة السرج على الفراش .. كانت البرودة لادعة . ولم يجد نفسه قدرة على النهوض ليشغل النافذة . بل لعله استعذب وخزات الليل الخريفى الزاحف .

لماذا لم تخرج باطة اغطية الشتاء؟ الشتاء مازال بعيداً والطقس يراوغ هماك ابام حارة كثيرة يحملها نشرين سبتمبر ينتهى عده قل ايلول مدا يكون ايلول احواله . ربما كان اشتقاقاً من ايل الى المنطقة الواقعة فى الغرب الاسيوى . ايل .. و .. و ..

فتكون ايلول . لكن الطق احرفى لا يستقيم . أو لعلها من «بعل» الاله الاخر المسامس . فتكون بعلول ثم حرفت .. بعلول .. بهلول ماذا تقول يا يوسف؟ الال .. والبعل ديهوه الاله الكنعانيين والفينيقيين والعمرانيين . تهويماتك تحملك على جناح طائر محمور تريد ان تتشاغل عن خبيتك الثقيلة ترتع فى فراشك

واخوك الاكبر ملقى على ارض التخشيب في الكراكون .. وباه
صسوت من هذا؟ .. هانى يناديك .. هانى يقف على سور
الكورنيش عند مرسى الانفوشى وينادى .. يا زين .. يا زين
العابدين .. يا ورد مفتاح حوه البساتين . والورد كان شوك من
عرق البنى فتح ..

خطت تحت الأستاذ

ساحة كلية الاداب فى منطقة الازارطة غموج بالطلاب . عاودته
ذكريات السوات الاربع احدى سوات العمر . هنا كانت تواهيه
رحاب قادمة من كلية التجارة . وهنا تشاحرت مع ليلي زميلة حين
فاجأتهما بضحكان . وفي هذا الممر اختأ بعد هطول امطار بوة
الكرم وقد ابتلا وغلبته الروة ليقبل خدها ويرشف قطرات المطر من
عليه.

سأل من صادفه عن مكتب الدكتور هانى . نهامس الطلاب
وتبادلت طالبتان اشارات غامضة يعملوها ابتسام ساكر .. ثم تفرقا
جميعا ليتجمعا عند حائط بعيد ينظرون نحوه وهو يتجه نحو عرفة
فى قسم اللغة الانجليزية حيث جلس هانى وحده..

- ما الذى اتى بك؟

كان صوته مفعما بعدوانية مرهقة..

- اريد ان اطمن عليك.

- لا تكذب اعرف انك تريد ان تجعل من الشكوى المحرمة مادة
لتحقيق صحفى .. حسنا .. سأملئ عليك ما اريد قوله.. ما رأيك
فى ماشيت بعرض الصفحة يقول «أستاذ الجامعة المتهم بالشذوذ

يقسم انه رجل»^٩ . لم يكن بالحجرة عيرهما ومع ذلك طلب منه
يوسف ان يتمالك نفسه.

- أتعرف ان نانسى قالت لصديقاتها وكل معارفها انها فسحت
خطتها لى بعد ان اكتشفت شذوذى؟
وهل تصدق انها لم تكتف بذلك وطلبت ان تشهد فى التحقيق
الذى تجريه الكلية حول شكاوى الطلبة الاربعة؟

عينا الرجل تبرزان من محجريهما بين هاليتين سوداويين.
وتلقين بطل محضر على وحتين شاحبتين ترتجف فى احدهما
عضلة تبدو وكأنها وريد ينبض بسرعة رفة العين .. وازرقت
عند عارضيه شعيرات دموية دقيقة . فى لحظة كاشافة الرق
حيث تصاء الدنيا بلا سبب بالنور المهر . رأى يوسف رأس
هانى كحمجمة مجردة مثقوبة فأغمض عينيه ليهاجمه الصداق
القديم . ويتبع السواد بالاشكال البيضاء غير المتسقة . وأتى
ايه صوت الرجل يهدد ممزقا كصفير مرجل توشك مياهه ان
تنبحر

احسرى بالله عليك ماذا اقول؟ كيف انتمى تهمة كهذه؟ كيف
اثبت لهؤلاء الوحوش الذين يتلمطون وبسبل اللعاب من اشداهم
فى انتظار وليمة يأكلون فيها لحمى . كيف اثبت لهم اننى لست
شادا؟ هل اخطب فيهم؟ هل اقسام على كتاب الله؟ .. لماذا تعمض
عينيك دونى وكأنك تكره ان ترانى؟ أتصدقهم يا يوسف؟
- افتح عينيك الملموتين وانظر فى وجهي! ..
كأت لهجته صارحة مأكية تشى بانهييار وشيك . ورد فعل

معكس فتح يوسف عينيهِ وانتقل صداحه من الاحساس المباشر الى مكان ما ينتظر فيه متربصا.

- هل بدا لك منى ما يثير لديك شكاً؟

لا تفعل هذا بنفسك يا دكتور ألا تلاحظ انك تسير بقدميك داخل ارضهم الملقومة وتوشك ان تقع فى شركهم؟ واسك تفتح مسارب وعيك لشك سيهاجمك انت نفسك؟ تريد ان تخن يا رجل؟

ابهار الرجل واقمأ على ركبتيه . واستسلم لنشيج عصبي اهتر له يوسف وانخلع قلبه . وكاد يكي بدوره حين سمع الضجة فى الخارج . وداهمه احساس بخوف غير مبرر . فهرع ليستطلع ما يحدث . كان الممر الذى يقع فيه مكتب الدكتور هانى يكتظ بمجموعة من الطلاب . يقودهم ثلاثة من الشبان الذين اطلقوا لحاحهم مثلما يفعل اعضاء الجماعات الاصولية المفرقة فى تزمتهن لافتات مكتوبة بخطوط عظيمة على اوراق ابريستول التى تستخدم عادة لمجلات الحائط «اطردوا المأبون» «لا مكان للشواذ فى دار العلم».

من الطرف المقابل مجموعة اخرى اقل . بدا واضحا رفض افرادها لما يحدث . انجموعتان تتشاكبان ويظهر حرس الكلية فى ثواب ليحيطوا باجمع . ويخفر بعض مكتب هانى الذى منع من معادرتة . حاول يوسف ان يعود الى مكتب الرجل الرقيق . لكن الضابط معه واصر على منعه حتى بعد ان اطلعه على بطاقته الصحفية..

. احس يوسف بأصابع الثلج تنشب اظافرها فى عنقه . وكل

المرينات فى الشوارع التى راح يطوف بها على غير هدى تشيح بالوان خريفية كابية .. الشمس فقدت وهجها واصفرت . والبحر كحلت ررقته وتحولت الى لون الرماد وهامات الاشجار فى مقبرة الشاطبي القديم تعرت من خضرتها الداكنة والقت بأوراقها على السور الابيض..

«احسنى ان اكرهك يا اسكندرية . لم أعهدك ابدا بهذه القسوة . ماذا جرى لك يا رجة الصدر والاحضان . يا مقصد الحائفين ومأمن المطرودين .. انت يا دفء النفوس المقدورة وزاد الجوعى والمحرومين . هل اصابتك لعة المدن الحجرية فتحولت الى منوى للاصنام ومتحف للاجساد المحنطة؟»

- تفهم لمن يا يوسف؟

- احدث نفسى حتى لا اجن..

- ألا تملك شيئا غير الجنون؟

والجنون نعمة من نعم الحرية . يحدث هذا حين تضيق لك الارض مما رحبت ولا تجد سبيلا للخلاص فتنبجأ الى حيث . يجد الاسئلة ولا تبحث عن اجابات . تلك المساحات من عتته الساكن اليليد .. ترتادها فلا تنترك بل تعطيك وطنا .. وكسرة خسر .. وكأس شراب.

دائرة الطباشير الوهمية

لم يتصور ان يرد عليه فوزى الشماع بهذه السهولة .. وأقلقه أن يحيى صوته جذلانا مبتهجا . «أذيتك تغطية حكاية الرجل الشاد»

· انها مؤامرة دنسة يا سيدى .. وسأكتب تحقيقا يكشف ابعادها وارسله اليك.

- هل يحوى التحقيق اشارة الى قضية المخدرات المتهم فيها اخوك الاكبر؟

الصوت هذه المرة يرتجف بلذة تشف عازمة.. واستطرد دون ان يدفع للفتى فرصة الرد..

- اذهب بالمرّة الى والد محسوبك قتيل مارينا واعرف منه حقيقة ما نشر اليوم عن اقراره بأن ابنه قد ابلغه بالهاتف من مارينا ليلة الحادث انه سيتحرر .. وانه لا يتهم آل الرمادى بشيء..

- ضغطوا عليه بالخوف أم أغروه بالمال؟

- كف عن التفلسف .. ولا تناقش خبرا نأكدنا من صدقه وافعل كما أمرك..

- سيادة رئيس التحرير .. «... أمك»!

ساد الصمت للحظات قبل ان يسمع صوت الشماع مرة اخرى ..

- انت مفصول .. وبلا رجعة هذه المرة...

جلس مكانه وظل يضحك .. ورفيق يرفقه عابسا ..

- اختك باطة واحسوك على اتصال بالهاتف يسالانى عنك

يقولان ان الشرطة تبحث عنك ..

... امسك بيد رحاب فاستكانت بين اصابعه .. رخصة .. باردة..

- يدك باردة ..

- قلبى دافئ ..

ثار رفيق . «ألم تبق ذرة حياء لدى احدكما؟ ماذا اكون فى ناظركما لتتساردا الغزل أمامى هكذا؟ ناقص ان تخلعا ثيابكما وتنضاحان وانا أتفرج لعلى قواد .. ولعل بيت اجوينى قد صار «حبيرة» . اذهب لحال سبيلك الآن يا بن الشفقى . فلا اريد ان تنتهى صداقتنا فى الكراكون .. اقسم برأس ابى لئن لم تختف من ناظرى الآن لأضربك حتى تقطع النفس.

. احلقة تضيق يا يوسف . هلى اين تأخذك قدماك؟ الى دابر البحر؟ ام غبريال .. ام لوران

... فى دابر البحر لقيه على الاحسن ونصحته بأن يذهب طواحية الى الشرطة فزبانية الجحيم يتقاطرون على مصالح الاسرة .. اعلق محل المانيساتورة اداريا لاسباب مضحكة واصطحبوا سيد المرسى الى حيث يستجوبونه عن اقتناء اسلحة خطيرة بدون ترخيص.. حرزوا مقص القماش يا يوسف .. ومطواة قرن غزال قديمة .. وهجموا على محل التحف والانتيكات عندى وصادروا بضائع لا تقدر بشئ بحجة انها اثار مسروقة ونهبوا على بالثول امام النيابة فى الغد وضابط الحملة همس فى اذنى بأن كل شئ سينتهى على خير اذا جاء تليفون «معين» من القاهرة . ويوسف الشفقى وجده هو الذى يمكنه ان يجعل الجرم يدق.. فى مكتب الباشا مدير الامن . ماذا فعلت بهم يا بن ابى؟ كأنك حشرت «قرن شطة» فى مؤخرة كبير منهم.. ادركنا يا احلى ولا تدع الامور تنحدر الى ما هو اسوأ. . فى غبريال كان الباب مغلقا ولا احد يرد من داخل المسكن . قالت له المائعة التى ترابط بعرضتها امام المنزل.. ان «ماشوات» من

«القاهرة» جاءوا بسيارتين فارنتين .. واصطحبوا امام وزوجته
الثكلى والابنة .. ورحلوا.

- ترك مفتاحه عند رضوان البقال امانة تتسلمها اخته المقيمة فى
ادكو حال حضورها .. واخبره انهم لا يطبقون البقاء فى
الاسكندرية بعد المرحوم .. وان ربنا كتب لهم الاستقرار بعيدا على
امل الصبر والسلوان.

... الصخرة تنحدر من القمة لتسحق يا فارس المثل العليا وسادن
العدل وخازن الحقيقة .. وانت وامثالك مجرد حصى فى المنحدر
كيف امكنت ان توهم نفسك ولو للحظة انك قادر على وقف
اندفاع الصخرة بأن تضع قدمك انت الحصاة فى طريقها؟ هاهى
صحيفتك التى افردت صدرها لانتصارك المؤزر تنشر فى نفس
المكان صورة بعرضها للاب المكلم .. يتقبل عزاء رجل الاعمال
والبر وراعى ثلاثة ارباع الانشطة الفنية فى البلد الوجيه ..
عبدالرحمن الرمادى .. يتعانقان امام الكاميرا وبالمناشيتات
العريضة يلهج عم امام بالثناء على مروءة الرمادى الكبير الذى
آله وادى قلبه ذلك الحداث المؤسف الذى وقع بالقرب من
منتجعه الصيفى.

- ابنى زين رحمة الله عليه كان يعانى من متاعب نفسية فى العامين
السابقين نتيجة بعض المشاكل التى نشبت بينه وبين زملائه فى
الكلية .. كان يحرضه على اثاره المشاكل استاذ يدعى هانى الكردى
.. يشهد الله اننى لم اكن مرتاحا لعلاقته بولدى ..
طوى يوسف الصحيفة ولم يستطع ان يتم قراءة الموضوع ..

... فى لوران لم يقترب من فيلا الكردى .. توجه الى بيت نانسى ..
وقدم نفسه ..

- انت صديقه؟

رشتته بنظرة حشدت فيها كل تحفزات العداء .. كأنها تنتظر مجرد
كلمة تقترب من نخوم الفاجعة التى شبت حولها فى سرعة وجنون
النار ..

- لم آت اليك صحفيا .. ولا بصفتى صديقاً لهانى .. جئت لأنى
اخبت بك منذ رأيتك تلك الليلة فى شرفة القنديل الاخضر ..
أتعرفين انى حلمت بك؟ نعم .. نمت معك فى حلم غريب
صحوت منه سعيدا غير نادم .. أدركت انى اشتهيتك كأننى ..
وأحسست فيك بامرأة خلقت من اجلى .. لا تنظرى الى بهذا
القدر ..

رغمته بنظرة مراعاة .. «مخيول انت مثله .. حقاً .. تقع الطيور على
اشكالها .. تأتى فى هذه الظروف لتراودنى عن نفسى؟ .. ام تراها
خدعة صحافية لتستدرجنى؟ ..
تهالك جالساً دون ان تدعوه .. ومد ساقيه بطولهما حتى اصطدما
بساقها التى تجاوره ..

- اجلسى ..

لا يعرف كيف اصدر الامر ولم يحسب كيف تلتقاه .. ترددت
ولكنها لم تثر ولم تطرده .. امسك بمعصم يدها وجذبها نحوه ..
وبسرعة آلية ركعت على ركبتيها ولملت عيناها وافترت شفتاها عن
انتظار

- تعرف انه لم يقبلنى مرة واحدة .. تعرف انه لم يلمس يدي.
ولم يلتصق بي .. كان مخنثا!

... والاسمية غريبة حيث يكتنف الرمال كل المساحات .. وتتسلل
لساعات ريع شتوية هاجمته ليلة خريفية بلا مبرر .. وحين كررت
نانسى الكلمة للمرة الثانية صفعها! لم تكن صفعة غضب .. فهو لم
يكن غاضبا .. فقط احس بأن عليه ان يضر بها .. وتحقق ظنه المخنث
بعيدا في عقله الباطن .. فقد تشبث بكفه التى صفعتها .. ومسحت
بها خدها ثم اراحت عليها شفتيها .. وعيناها التى انطبق جفناها
فى نصف اغماضة نهيمن فى غيمة لا تلبث ان تذوب فى دمعات
متتالية ساخنة تحرق اديم يده ..
- كم دفعوا لك؟

من بين قبلاتها كان صوتها يلقي بعبارات برقية خاطفة ..

- عندي مال يشتريهم جميعا ..

- اذا فهو الانتقام؟

- لا احد يرفضنى ثم ينجو ..

.. مرت اصابعها تبحث حتى عثرت على سحابة سراوله فانتفض
يدفعها بعيدا .. تعلقت بساقه فركلها .. هذه اللبوة التى اشتهاها
ذات مساء وأثأها فى الحلم .. بدت له الآن رخيصة مقرفة وكان
عليه ان يساق نفسه الى هناك ..

على صخر "بير مسعود" جلس القرفصاء باسطا ذراعيه على ركبتيه
.. الشمس لم تعد هناك وأثأها الشفقية المحمرة ذابت فى ركام
غيمة ليلي زاحف.

.. آه لو استطاع ان ينام .. البحر عال .. لعله المد .. ولعله تيار
عاصف يبشر بمقدم نوة مبكرة .. شىء ما اصاب انتظام
الانتقال الفصلى .. فى مثل ايام مقابلة من العام الماضى واعوام
قبله كان تشرين اكثر دفئا وكان يخترن الكثير من وهج الصيف
الراحل ..

آه لو ينام .. رذاذ الماء الفوار يدغدغ خديه واثفه فينبهه الى الليل
القريب .. نهض واقفا وقد صدر بداخله قرار .. سأنهى كل شىء ..
.. أيقظته شمس مبكرة فى حجرة البرج وأسلمته الى الضحى فى
مكتب النيابة .. وضع الشريط المسجل امام الرجل الذى مزج
البسمة بالكثيرة فى اعتياد مهنى مدرب ..

- استجابتك لمنطق العقل أنقذتك فى الوقت المناسب.

- نظن ان هذا الشريط سيدبح لك قضية تدوى احدائها وترفع من
شأنك فى سلك العدالة والقضاء؟ .. واين تفعل هذا؟ فى المربع؟
خذ حذرك يا فارس الفرسان .. فهم ينتظرونك عند النواصى
والزوايا وخلف منحنيات الدراج .. ربما تجد نفسك مداتا برشوة لم
تطلبها أو مغتصبا لامرأة لم ترها .. أو ربما يفعلون بك مثل ما فعلوا
بالشاهد الاول فى القضية .. الدكتور هانى الكردي ..

سمعت طبعاً عما فعلوه لينكلوا به؟

لم يهتز رجل النيابة ولم تغب ابتسامته .. فقط تلاشت تكثيرته ..

- الدكتور صديقك لم يعد شاهدا يعتد به يا حضرة الصحفي ..

انت لا تعرف اين هو الآن؟

..... اين؟

اسم الموضوع	
الفصل الأول	
خط النهار في يوم سابق	
الفصل الثاني	
خط الشفق التالي	
الفصل الثالث	
دائرة القمر المخنوق	
الفصل الرابع	
خط الدم	
الفصل الخامس	
خطوط الكف	
الفصل السادس	
الدوائر المغلقة	
الفصل السابع	
الخطوط الحمراء	
الفصل الثامن	
خطوط الطول	
الفصل التاسع	
منحنى الخط الدائري	
الفصل العاشر	
خط في منتصف الدائرة	
الفصل الحادي عشر	
دوائر الحصار	
الفصل الثاني عشر	
الخطوط والدوائر	

- حولناه بالامس الى مستشفى الامراض النفسية بالمعمورة لوضعه تحت الملاحظة وموافاتنا بتقرير رسمي عن حالته..

.... لم يسمع يوسف كلمة واحدة من كلام حسن الغريب بعد الافراج عنه .. ولا انتبه لنصائح علي الاحسن .. أو غمغمات سيد المرسي .. ولم تؤرقه نظرات العتب في عيني باطة .. ولا زمجرات الاحتجاج على لسان راما..

تركز كل انتباهه في همس الحاجة جازية بأذنه وهي تحتضنه..
- لا تتخل عنه في محنته يا ولدي..

انتفض بحمق فيها .. ولكنها كانت قد استسلمت لنومها العميق..

خط يحيط العنق كالقلادة

في ذلك الصباح من تشرين الثاني كانت الشمس غائبة .. وامطار نوة المكينة تضرب زجاج النافذة المريضة في حجرة البرج .. وراما تضع امامه صينية الافطار وجريدة الصباح ..

- في الجريدة صورة لصديقك الذي كان يزورك هنا ..
من ؟ .. فتح الجريدة وبحث حتى وجد الصورة والخبر ..
... الرجل الرقيق ..

في حجرته بالمستشفى صبحا فجرا .. وشنق نفسه بسلك المصباح .. وعبر غلالة دمع تتسرقق من عينيه مع غلالة مطر على الزجاج ..
توهجت ملامح في ثنايا البرق الوامض خلف النافذة .. لاثنين ..
فتى حنطى .. ورجل رقيق .. وكانا يتسمان..



اسامة انور عكاشة

● من أشهر كتاب الدراما التلفزيونية في مصر والعالم

العربي .

● بدأ رحلته الإبداعية بكتابة القصة القصيرة في بداية الستينيات ونشر أعماله في الدوريات الأدبية المصرية والعربية.

● كانت نقطة التحول الفنية عام ١٩٧٦ حين دخل مجال الدراما التلفزيونية ليقدّم للمشاهد العربي أكثر من ٣٠ مسلسلا تلفزيونيا أهمها المشربية وأبواب المدينة ورحلة السيد أبو العلا البشري والراية البيضاء وعصفور النار وضمير أبلة حكمت وليالي الحلمية (خمسة أجزاء) وأرابيسك وامرأة من زمن الحب ويزينيا بالإضافة لعشرات السهرات الدرامية والأذاعية وبعض الأفلام السينمائية

● من مؤلفات عكاشة القصصية والروائية والمسرحية خارج الدنيا ومقاطع من أغنية قديمة وأحلام في برج بابل والناس اللي في الثالث وليالي الحلمية والإسكندراني وأوراق مسافر وهمس البحر وبتاريخ خريف (نثر فني) وأخيرا منخفض الهند الموسمي (رواية) الصادرة عن كتاب «الجمهورية» بعد نشرها سلسلة في العدد الأسبوعي منذ شهر .

رقم الإيداع ٢٠١١/١٣٤٩٠

الترقيم الدولي ٢ - ٣٣٧ - ٢٣٦ - ٩٧٧ ISBN